ورضوانه، وتركنا عليهما بعد موتهما ثناءً حسنًا في الناس، فأهل الإيمان يثنون عليهما، ومع ذلك فتحية من الله عَزَّوَجَلَّ لهما في الدنيا والآخرة، ووعد بالأمن لهما في الدنيا والآخرة، وهكذا نجازي كل محسن بإكرامه، ثم ختام بشهادة حسنة لموسى وهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، شهادة من الله لهما بالإيمان والصدق فيه ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهنيئًا لهما بسلام الله عليهما، وبوصفه الكريم لهما بالإيمان والإحسان.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه، وما كان يعتمده في حقهم من الإساءة العظيمة، من قتل الأبناء واستحياء النساء، واستعمالهم في أخس الأشياء. ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم، وأقر أعينهم منهم، فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم. ثم أنزل الله على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين، وهو التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾ [الأنبياء:٤٨].

وقال هاهنا: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨)﴾ أي: في الأقوال والأفعال.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩)﴾ أي: أبقينا لهما من بعدهما ذكرًا جميلًا وثناء حسنًا، ثم فسره بقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢)﴾.

قول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان هلاك قوم فرعون

هذا وقد قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى (في قصص الأنبياء) في هلاك قوم فرعون:

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَمَّا اسْتَكْبَرُوا عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَادَّعَى مَلِكُهُمُ الْبَاطِلَ وَوَافَقُوهُ عَلَيْهِ وَأَطَاعُوهُ فِيهِ، اشْتَدَّ غَضَبُ الرَّبِّ الْقَدِيرِ الْعَزِيزِ، الَّذِي لَا يُغَالَبُ وَلَا يُمَانَعُ عَلَيْهِمْ، فَانْتَقَمَ مِنْهُمْ أَشَدَّ الِانْتِقَامِ، وَأَغْرَقَهُ هُوَ وَجُنُودَهُ فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ فَلَمْ يُفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُم ديار، بل كل قَدْ غَرِقَ فَدَخَلَ النَّارَ، وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ لَعْنَةً بَيْنَ الْعَالَمِينَ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ.

ثم يفصل بعض التفصيل في ذلك فيقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

لَمَّا تَمَادَى قِبْطُ مِصْرَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعُتُوِّهِمْ وَعِنَادِهِمْ، مُتَابَعَةً لِمَلِكِهِمْ فِرْعَوْنَ، وَمُخَالَفَةً لِنَبِيِّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَكَلِيمِهِ مُوسَى بن عمران عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقَامَ اللهُ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ الْحُجَجَ الْعَظِيمَةَ الْقَاهِرَةَ، وَأَرَاهُمْ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ مَا بَهَرَ الْأَبْصَارَ وَحَيَّرَ الْعُقُولَ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَرْعَوُونَ وَلَا يَنْتَهُونَ، وَلَا يَنْزِعُونَ وَلَا يَرْجِعُونَ. وَلَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا الْقَلِيلُ.

قِيلَ ثَلَاثَةٌ: وَهُمُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَلَا عِلْمَ لِأَهْلِ الْكِتَابِ بِخَبَرِهَا، وَمُؤمن آل فِرْعَوْن الَّذِي تقدّمت حِكَايَةُ مَوْعِظَتِهِ وَمَشُورَتِهِ وَحُجَّتِهِ عَلَيْهِمْ، وَالرَّجُلُ النَّاصِحُ الَّذِي جَاءَ يَسْعَى مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ فِيمَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ وَمُرَادُهُ غَيْرُ السَّحَرَةِ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مِنَ الْقِبْطِ. وَقِيلَ بَلْ آمَنَ بِهِ طَائِفَةٌ مِنَ الْقِبْطِ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ، وَالسَّحَرَةُ كُلُّهُمْ وَجَمِيعُ شَعْبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن

فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [يونس: ٨٣]

فَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ عَائِدٌ عَلَى فِرْعَوْنَ لِأَنَّ السِّيَاقَ يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَقِيلَ: عَلَى مُوسَى لِقُرْبِهِ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ كَمَا هُوَ مُقَرر فِي التَّفْسِير وَإِيمَانُهُمْ كَانَ خُفْيَةً لِمَخَافَتِهِمْ مِنْ فِرْعَوْنَ وَسَطْوَتِهِ، وَجَبَرُوتِهِ وَسُلْطَتِهِ، وَمِنْ مَلَئِهِمْ أَنْ يَنِمُّوا عَلَيْهِمْ إِلَيْهِ فَيَفْتِنَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ فِرْعَوْنَ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أَي: جَبَّار عنيد مشتغل بِغَيْر الْحق، ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أَيْ: فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ وَشُئُونِهِ وَأَحْوَالِهِ. وَلَكِنَّهُ جُرْثُومَةٌ قَدْ حَانَ انْجِعَافُهَا[1] وَثَمَرَةٌ خَبِيثَةٌ قَدْ آنَ قِطَافُهَا، وَمُهْجَةٌ مَلْعُونَةٌ قَدْ حُتِمَ إِتْلَافُهَا.

وَعند ذَلِك قَالَ مُوسَى: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يونس: ٨٤-٨٦] فَأَمرهمْ بِالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَالِالْتِجَاءِ إِلَيْهِ، فَأْتَمَرُوا بِذَلِكَ فَجَعَلَ اللهُ لَهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ فَرَجًا وَمَخْرَجًا.

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٨٧].

أَوْحَى اللهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ عليهما السلام أَن يتخذا لِقَوْمِهِمَا بُيُوتًا مُتَمَيِّزَةً فِيمَا بَيْنَهُمْ عَنْ بُيُوتِ القبط، ليكونوا على أهبة الرَّحِيلِ إِذَا أُمِرُوا بِهِ، لِيَعْرِفَ بَعْضُهُمْ بُيُوتَ بعض.

وَقَوله: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ قِيلَ: مَسَاجِدَ وَقِيلَ: مَعْنَاهُ كَثْرَةُ الصَّلَاةِ فِيهَا.

قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَأَبُو مَالِكٍ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالرَّبِيعُ وَالضَّحَّاك وَزيد ابْن أسلم وَابْنه عبد الرَّحْمَن وَغَيرهم.

---

(١) الانجعاف: الاستئصال والاقتلاع والإهلاك.

وَمَعْنَاهُ عَلَى هَذَا: الِاسْتِعَانَةِ عَلَى مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضُّرِّ وَالشِّدَّةِ وَالضِّيقِ بِكَثْرَةِ الصَّلَاةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمْرٌ صَلَّى.

وَقِيلَ مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا حِينَئِذٍ يَقْدِرُونَ عَلَى إِظْهَارِ عِبَادَتِهِمْ فِي مُجْتَمَعَاتِهِمْ وَمَعَابِدِهِمْ، فَأُمِرُوا أَنْ يُصَلُّوا فِي بُيُوتِهِم، عوضًا عَمَّا فاتهم من إِظْهَار شَعَائِرِ الدِّينِ الْحَقِّ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ، الَّذِي اقْتَضَى حَالُهُمْ إِخْفَاءَهُ خَوْفًا مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ وَالْمَعْنَى الأول أَقْوَى لقَوْله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وَإِنْ كَانَ لَا يُنَافِي الثَّانِيَ أَيْضًا وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: ﴿وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾: أَيْ مُتَقَابِلَةً.

دعاء موسى عليه السلام على فرعون وملئه

قال الله سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير الآيتين:

هَذِهِ دَعْوَةٌ عَظِيمَةٌ دَعَا بِهَا كَلِيمُ اللهِ مُوسَى عَلَى عَدُوِّ اللهِ فِرْعَوْنَ، غَضَبًا لِلَّهِ عَلَيْهِ لِتَكَبُّرِهِ عَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَصَدِّهِ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَمُعَانَدَتِهِ وَعُتُوِّهِ وَتَمَرُّدِهِ، وَاسْتِمْرَارِهِ عَلَى الْبَاطِلِ، وَمُكَابَرَتِهِ الْحَقَّ الْوَاضِحَ الْجَلِيَّ الْحِسِّيَّ وَالْمَعْنَوِيَّ، وَالْبُرْهَانَ الْقَطْعِيَّ، فَقَالَ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ﴾ يَعْنِي: قَوْمَهُ مِنَ الْقِبْطِ، وَمَنْ كَانَ عَلَى مِلَّتِه وَدَانَ بِدِينِهِ.

﴿زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ﴾ أَيْ: وَهَذَا يَغْتَرُّ بِهِ مَنْ يُعَظِّمُ أَمْرَ الدُّنْيَا، فَيَحْسَبُ الْجَاهِلُ أَنَّهُمْ عَلَى شيء، لَكِن هَذِهِ الْأَمْوَالِ وَهَذِهِ

الزِّينَةِ، مِنَ اللِّبَاسِ وَالْمَرَاكِبِ الْحَسَنَةِ الْهَنِيَّةِ، وَالدُّورِ الْأَنِيقَةِ وَالْقُصُورِ الْمَبْنِيَّةِ، وَالْمَآكِلِ الشَّهِيَّةِ وَالْمَنَاظِرِ الْبَهِيَّةِ، وَالْمُلْكِ الْعَزِيزِ وَالتَّمْكِينِ، وَالْجَاهِ الْعَرِيضِ فِي الدُّنْيَا لَا الدِّينِ.

﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ: أَيْ أَهْلِكْهَا.

وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنَسٍ وَالضَّحَّاكُ: اجْعَلْهَا حِجَارَةً مَنْقُوشَةً كَهَيْئَةِ مَا كَانَتْ، وَقَالَ قَتَادَةُ: بَلَغَنَا أَنَّ زُرُوعَهُمْ صَارَتْ حِجَارَةً وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ: جَعَلَ سُكَّرَهُمْ حِجَارَةً، وَقَالَ أَيْضًا: صَارَتْ أَمْوَالُهُمْ كُلُّهَا حِجَارَةً ذُكِرَ ذَلِكَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لغلام لَهُ: قُم ائتنى بكيس.

فَجَاءَهُ بكيس، فَإِذا فِيهِ حُمُّصٌ وبَيْضٌ قَدْ حُوِّلَ حِجَارَةً! رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَيِ اطْبَعْ عَلَيْهَا.

وَهَذِهِ دَعْوَةُ غَضَبٍ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِدِينِهِ وَلِبَرَاهِينِهِ.

فَاسْتَجَابَ اللهُ تَعَالَى لَهَا، وَحَقَّقَهَا وَتَقَبَّلَهَا، كَمَا اسْتَجَابَ لِنُوحٍ فِي قَوْمِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦ إِنَّكَ إِن تَذَرۡهُمۡ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى، مُخَاطِبًا لِمُوسَى حِينَ دَعَا عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، وَأَمَّنَ أَخُوهُ هَارُونُ عَلَى دُعَائِهِ فَنَزَلَ ذَلِكَ مَنْزِلَةَ الدَّاعِي أَيْضًا: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

مُجمل ما ذكره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في هلاك فرعون وجنوده:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير آيات سورة الشعراء ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ ..﴾ الآيات.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ عُلَمَاءُ التَّفْسِيرِ: لَمَّا رَكِبَ فِرْعَوْنُ فِي جُنُودِهِ طَالِبًا بَنِي إِسْرَائِيلَ يَقْفُو أَثَرَهُمْ كَانَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ عَرَمْرَمٍ[1]، حَتَّى قِيلَ: كَانَ فِي خُيُولِهِ مِائَةُ أَلْفِ

(١) عرمرم: الشديد وجيش عرمرم: كثير.

فَحْلٍ أَدْهَمَ، وَكَانَتْ عِدَّةُ جُنُودِهِ تَزِيدُ عَلَى أَلْفِ أَلْفٍ وَسِتِّمِائَةِ أَلْفٍ، فَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقِيلَ: إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا نَحْوًا مِنْ سِتِّمِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ غَيْرَ الذُّرِّيَّةِ، وَكَانَ بَيْنَ خُرُوجِهِمْ مِنْ مِصْرَ صُحْبَةَ مُوسَى عليه السلام وَدُخُولِهِمْ إِلَيْهَا صُحْبَةَ أَبِيهِمْ إِسْرَائِيل أَرْبَعمِائَة سنة وستًّا وَعِشْرِينَ سَنَةً شَمْسِيَّةً.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَحِقَهُمْ بِالْجُنُودِ، فَأَدْرَكَهُمْ عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، وَتَرَاءَى الْجَمْعَانِ، وَلَمْ يَبْقَ ثَمَّ رَيْبٌ وَلَا لَبْسٌ، وَعَايَنَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ صَاحِبَهُ وَتَحَقَّقَهُ وَرَآهُ، وَلَمْ يبْق إِلَّا الْمُقَاتلَة والمجادلة وَالْمُحَامَاةُ.

فَعِنْدَهَا قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى وَهُمْ خَائِفُونَ: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمُ اضْطُرُّوا فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى الْبَحْرِ فَلَيْسَ لَهُمْ طَرِيقٌ وَلَا مَحِيدٌ إِلَّا سُلُوكُهُ وَخَوْضُهُ، وَهَذَا مَا لَا يَسْتَطِيعُهُ أَحَدٌ وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَالْجِبَالُ عَنْ يَسْرَتِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَهِيَ شَاهِقَةٌ مُنِيفَةٌ، وَفِرْعَوْنُ قَدْ غَالَقَهُمْ وَوَاجَهَهُمْ، وَعَايَنُوهُ فِي جُنُودِهِ وَجُيُوشِهِ وَعَدَدِهِ وَعُدَدِهِ، وَهُمْ مِنْهُ فِي غَايَةِ الْخَوْفِ وَالذُّعْرِ، لِمَا قَاسَوْا فِي سُلْطَانه من الإهانة وَالْمَكْر.

فَشَكَوْا إِلَى نَبِيِّ اللهِ مَا هُمْ فِيهِ مِمَّا قَدْ شَاهَدُوهُ وَعَايَنُوهُ.

فَقَالَ لَهُمُ الرَّسُولُ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وَكَانَ فِي السَّاقَةِ[1]، فَتَقَدَّمَ إِلَى الْمُقَدِّمَةِ، وَنَظَرَ إِلَى الْبَحْرِ وَهُوَ يَتَلَاطَمُ بِأَمْوَاجِهِ، وَيَتَزَايَدُ زَبَدُ أَجَاجه، وَهُوَ يَقُول: هَا هُنَا أُمِرْتُ.

وَمَعَهُ أَخُوهُ هَارُون، ويوشع بْن نُونٍ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ مِنْ سَادَاتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَعُلَمَائِهِمْ وَعُبَّادِهِمُ الْكِبَارِ، وَقَدْ أَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ وَجعله نَبيًّا بعد مُوسَى وهَارُون عليهما السلام، كَمَا سَنَذْكُرُهُ فِيمَا بَعْدُ إِنْ شَاءَ الله، وَمَعَهُمْ أَيْضًا مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ، وَهُمْ وُقُوفٌ، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ بِكَمَالِهِمْ عَلَيْهِمْ عُكُوفٌ.

---

(١) الساقة: المؤخرة.

وَيُقَالُ: إِنَّ مُؤْمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ جَعَلَ يَقْتَحِمُ بِفَرَسِهِ مِرَارًا فِي الْبَحْرِ، هَلْ يُمْكِنُ سُلُوكُهُ؟ فَلَا يُمْكِنُ، وَيَقُولُ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا نَبِيَّ اللهِ هَاهُنَا أُمِرْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ.

فَلَمَّا تَفَاقَمَ الْأَمْرُ وَضَاقَ الْحَالُ وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ، وَاقْتَرَبَ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ فِي جِدِّهِمْ وَحَدِّهِمْ وَحَدِيدِهِمْ، وَغَضَبِهِمْ وَحَنَقِهِمْ، وَزَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ، عِنْدَ ذَلِكَ أَوْحَى الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ الْقَدِيرُ، رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ، إِلَى مُوسَى الْكَلِيمِ: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾.

فَلَمَّا ضَرَبَهُ، يُقَالُ إِنَّهُ قَالَ لَهُ: انْفَلِقْ بِإِذْنِ اللهِ. وَيُقَالُ: إِنَّهُ كَنَّاهُ بِأَبِي خَالِدٍ وَاللهُ أَعْلَمُ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وَيُقَال إِنَّه انْفَلق اثنى عشر طَرِيقًا، لِكُلِّ سِبْطٍ(١) طَرِيقٌ يَسِيرُونَ فِيهِ، حَتَّى قِيل: إِنَّه صَار فِيهِ أَيْضًا شَبَابِيكَ لِيَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا! وَفِي هَذَا نَظَرٌ، لِأَنَّ الْمَاءَ جِرْمٌ شَفَّافٌ إِذَا كَانَ مِنْ وَرَائِهِ ضِيَاءٌ حَكَاهُ. وَهَكَذَا كَانَ مَاءُ الْبَحْرِ قَائِمًا مِثْلَ الْجِبَالِ، مَكْفُوفًا بِالْقُدْرَةِ الْعَظِيمَةِ الصَّادِرَةِ من الَّذِي يَقُول للشيء كن فَيكون.

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾ [طه: ٧٧-٧٩].

وَالْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَمَّا آلَ أَمْرُ الْبَحْرِ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ، بِإِذْنِ الرَّبِّ الْعَظِيمِ الشَّدِيدِ الْمِحَالِ، أُمِرَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنْ يَجُوزَهُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ، فَانْحَدَرُوا فِيهِ مُسْرِعِينَ مُسْتَبْشِرِينَ مُبَادِرِينَ، وَقَدْ شَاهَدُوا مِنَ الْأَمْرِ الْعَظِيمِ مَا يُحَيِّرُ النَّاظِرِينَ.

---

(١) كان بنو إسرائيل اثنى عشر سبطًا، والجمع أسباط.

ويهدى قُلُوب الْمُؤمنِينَ. فَلَمَّا جازوه وجاوزوه وَخَرَجَ آخِرُهُمْ مِنْهُ، وَانْفَصَلُوا عَنْهُ، كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ قُدُومِ أَوَّلِ جَيْشِ فِرْعَوْنَ إِلَيْهِ، وَوُفُودِهِمْ عَلَيْهِ.

فَأَرَادَ مُوسَى عليه السلام أَنْ يَضْرِبَ الْبَحْرَ بِعَصَاهُ لِيَرْجِعَ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ، لِئَلَّا يَكُونَ لِفِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ وَصُولٌ إِلَيْهِ، وَلَا سَبِيلٌ عَلَيْهِ، فَأَمَرَهُ الْقَدِيرُ ذُو الْجَلَالِ أَنَّ يَتْرُكَ الْبَحْرَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، كَمَا قَالَ وَهُوَ الصَّادِقُ فِي الْمَقَالِ:

ثم أورد ابن كثير آيات سورة الدخان ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ...﴾ الآيات وقال: فَقَوله تَعَالَى: ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ أَيْ: سَاكِنًا عَلَى هَيْئَتِهِ، لَا تُغَيِّرْهُ عَنْ هَذِهِ الصِّفَةِ.

قَالَهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالرَّبِيعُ وَالضَّحَّاكُ وَقَتَادَةُ وَكَعْبُ الْأَحْبَارِ وَسِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ، وَغَيْرُهُمْ.

فَلَمَّا تَرَكَهُ عَلَى هَيْئَتِهِ وَحَالَتِهِ وَانْتَهَى فِرْعَوْنُ، فَرَأَى مَا رَأَى وَعَايَنَ مَا عَايَنَ، هَالَهُ هَذَا الْمَنْظَرُ الْعَظِيمُ، وَتَحَقَّقَ مَا كَانَ يَتَحَقَّقُهُ قَبْلَ ذَلِكَ مِنْ أَنَّ هَذَا مِنْ فِعْلِ رَبِّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ، فَأَحْجَمَ وَلَمْ يَتَقَدَّمْ، وَنَدِمَ فِي نَفْسِهِ عَلَى خُرُوجِهِ فِي طَلَبِهِمْ وَالْحَالَةُ هَذِهِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُ النَّدَمُ، لَكِنَّهُ أَظْهَرَ لِجُنُودِهِ تَجَلُّدًا وَعَامَلَهُمْ مُعَامَلَةَ الْعِدَا، وَحَمَلَتْهُ النَّفْسُ الْكَافِرَةُ وَالسَّجِيَّةُ الْفَاجِرَةُ عَلَى أَنْ قَالَ لِمَنِ اسْتَخَفَّهُمْ فَأَطَاعُوهُ، وَعَلَى بَاطِلِهِ تَابَعُوهُ: انْظُرُوا كَيْفَ انْحَسَرَ الْبَحْرُ لِي لِأُدْرِكَ عَبِيدِي الآبقين من يَدي، الخارجين على طَاعَتِي وَبَلَدِي؟ وَجَعَلَ يُورِي فِي نَفْسِهِ أَنْ يَذْهَبَ خَلْفَهُمْ، وَيَرْجُو أَنْ يَنْجُوَ وَهَيْهَاتَ، وَيُقْدِمُ تَارَةً وَيُحْجِمُ تَارَاتٍ!

فَذَكَرُوا أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام تَبَدَّى فِي صُورَةِ فَارِسٍ رَاكِبٍ عَلَى رَمَكَةٍ حَائِلٍ[1] فَمَرَّ بَيْنَ يَدَيْ فَحْلِ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللهُ، فَحَمْحَمَ إِلَيْهَا وَأَقْبَلَ عَلَيْهَا، وَأَسْرَعَ جِبْرِيلُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَاقْتَحَمَ الْبَحْرَ، وَاسْتَبَقَ الْجَوَادَ وَقَدْ أَجَادَ، فَبَادَرَ مُسْرِعًا، هَذَا وَفِرْعَوْنُ لَا يَمْلِكُ مِنْ نَفسه ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْجُنُودُ قَدْ سَلَكَ الْبَحْرَ اقْتَحَمُوا وَرَاءَهُ

(١) رمكة حائل: الفرس التي لم تحمل.

مُسْرِعِينَ، فَحَصَلُوا فِي الْبَحْرِ أَجْمَعِينَ أَكْتَعِينَ[١] أَبْصَعِينَ[٢]، حَتَّى هَمَّ أَوَّلُهُمْ بِالْخُرُوجِ مِنْهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ أَمَرَ اللهُ تَعَالَى كليمه فِيمَا أوحاه إِلَيْهِ أَن يضْرب بعصاه الْبَحْر؛ فَضَرَبَهُ فَارْتَطَمَ عَلَيْهِمُ الْبَحْرُ كَمَا كَانَ، فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِنْسَانٌ.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٥-٦٨]

أَيْ: فِي إِنْجَائِهِ أَوْلِيَاءَهُ فَلَمْ يَغْرَقْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَإِغْرَاقِهِ أَعْدَاءَهُ فَلَمْ يَخْلُصْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، آيَةٌ عَظِيمَةٌ، وَبُرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَى قُدْرَتِهِ تَعَالَى الْعَظِيمَةِ، وَصِدْقِ رَسُولِهِ فِيمَا جَاءَ بِهِ عَنْ رَبِّهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ الْكَرِيمَةِ، وَالْمَنَاهِجِ الْمُسْتَقِيمَةِ.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.

[يونس: ٩٠-٩٢]

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ كَيْفِيَّةِ غَرَقِ فِرْعَوْنَ زَعِيمِ كَفَرَةِ الْقِبْطِ، وَأَنَّهُ لَمَّا جَعَلَتِ الْأَمْوَاجُ تَخْفِضُهُ تَارَةً وَتَرْفَعُهُ أُخْرَى، وَبَنُو إِسْرَائِيلَ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ وَإِلَى جُنُودِهِ، مَاذَا أَحَلَّ اللهُ بِهِ وَبِهِمْ مِنَ الْبَأْسِ الْعَظِيمِ وَالْخَطْبِ الْجَسِيمِ، لِيَكُونَ أَقَرَّ لأعين بني إِسْرَائِيل، وأشفى لِنُفُوسِهِمْ.

فَلَمَّا عَايَنَ فِرْعَوْنُ الْهَلَكَةَ وَأُحِيطَ بِهِ، وَبَاشَرَ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ أَنَابَ حِينَئِذٍ وَتَابَ، وَآمَنَ حِينَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾.

[يونس: ٩٦، ٩٧]

---

(١) أكتعين: كتع الرجل كتعًا تقبض وانضم وهي توكيد لأبصعين.

(٢) أبصعين: حمقى، توكيد لأكتعين.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

وَهَكَذَا دَعَا مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ، أَنْ يُطْمَسَ عَلَى أَمْوَالِهِمْ، وَيُشْدَدَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأليم، أَيْ: حِينَ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، وَيَكُونُ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ.

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى لَهُمَا - أَيْ: لِمُوسَى وهرون - حِين دعوا بِهَذَا: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩] فَهَذَا مِنْ إِجَابَةِ اللهِ تَعَالَى دَعْوَةَ كَلِيمِهِ وأخيه هرون عليهما السلام.

وَمِنْ ذَلِكَ الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ يُوسُفَ بْنِ مِهْرَانَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لما قَالَ فِرْعَوْنُ: آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنو إِسْرَائِيل قَالَ لِي جِبْرِيلُ: لَوْ رَأَيْتَنِي وَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَدَسَسْتُهُ فِي فِيهِ، مَخَافَةَ أَنْ تَنَالَهُ الرَّحْمَةُ!**»(١).

وأورد ابن كثير جملة أحاديث في هذا الباب لا تخلو من مقال ثم قال:

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ، وَنَصٌّ عَلَى عَدَمِ قَبُولِهِ تَعَالَى مِنْهُ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - لَوْ رُدَّ إِلَى الدُّنْيَا كَمَا كَانَ لَعَادَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْكُفَّارِ إِذَا عَايَنُوا النَّارَ وَشَاهَدُوهَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧]، قَالَ اللهُ: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٢٤٥١)، والترمذي (٥/ ٣١٠٧) وغيرهم، في سنده علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف، وللحديث طرق أخر لا تخلو من مقال.

وَقَوْلُهُ: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ ﴾ [يونس: ٩٢].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُ وَاحِدٍ: شَكَّ بَعْضُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي مَوْتِ فِرْعَوْنَ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ لَا يَمُوتُ، فَأَمَرَ اللهُ الْبَحْرَ فَرَفَعَهُ عَلَى مُرْتَفَعٍ، قِيلَ: عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ، وَقِيلَ: عَلَى نَجْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَعَلَيْهِ دِرْعُهُ الَّتِي يعرفونها مِنْ مَلَابِسِهِ، لِيَتَحَقَّقُوا بِذَلِكَ هَلَاكَهُ، وَيَعْلَمُوا قُدْرَةَ اللهِ عَلَيْهِ.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أَيْ: مُصَاحِبًا دِرْعَكَ الْمَعْرُوفَةَ بِكَ، ﴿لِتَكُونَ ﴾ أَيْ: أَنْتَ آيَةً ﴿لِمَنۡ خَلۡفَكَ ﴾ أَي: من بني إِسْرَائِيل، ودليلًا على قدرَة الله الَّذِي أهْلكك، وَلِهَذَا قَرَأَ بَعْضُ السَّلَفِ: (**لِتكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَة**).

وَيحْتَمل أَن يكون الْمُرَاد: ننجيك بجسدك مصاحبًا درعك، لتكون عَلَامَةً لِمَنْ وَرَاءَكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مَعْرِفَتِكَ وَأَنَّكَ هَلَكْتَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ كَانَ هَلَاكُهُ وَجُنُودِهِ فِي يَوْمِ عَاشُورَاءَ.

كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا غُنْدَرٌ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ أَبِي بِشْرٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَة وَالْيَهُود تَصُوم يَوْم عَاشُورَاء، فَقَالَ: «**مَا هَذَا الْيَوْم الَّذِي تصومونه؟** » فَقَالُوا: هَذَا يَوْمٌ ظَهَرَ فِيهِ مُوسَى عَلَى فِرْعَوْنَ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**أَنْتُمْ أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْهُمْ فَصُومُوا**»[(١)].

وأصل هذا الحديث في الصحيحين وغيرهما والله أعلم.

(١) البخاري (٢٠٠٤، ٣٣٩٧)، ومسلم (١١٣٠).

(٤١٢) أحمر أسود

الفصل الثامن

أحوال نبي الله موسى عليه السلام

مع بني إسرائيل بعد هلاك فرعون وجنوده

(٤١٤) أحمر أسود

نعمة الله عَزَّوَجَلَّ على بني إسرائيل بإنجائهم وإغراق آل فرعون

وقصة مرورهم على القوم الذين يعكفون على أصنام لهم

قال الله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِي وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾[طه:٨٠-٨٢]

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَذْكُرُ تَعَالَى مِنَّتَهُ وَإِحْسَانَهُ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا أَنْجَاهُمْ مِنْ أَعْدَائِهِمْ وَخَلَّصَهُمْ مِنَ الضِّيقِ والحرج وَأَنه وعدهم صُحْبَة نَبِيّهم إِلَى جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ أَيْ: مِنْهُمْ، لِيُنَزِّلَ عَلَيْهِ أَحْكَامًا عَظِيمَةً فِيهَا مُصْلِحَةٌ لَهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأُخْرَاهُمْ وَأَنَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ فِي حَالِ شِدَّتِهِمْ وَضَرُورَتِهِمْ فِي سَفَرِهِمْ فِي الْأَرْضِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا زَرْعٌ وَلَا ضَرْعٌ، مَنًّا مِنَ السَّمَاءِ، يُصْبِحُونَ فَيَجِدُونَهُ خِلَالَ بُيُوتِهِمْ، فَيَأْخُذُونَ مِنْهُ قَدْرَ حَاجَتِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى مِثْلِهِ مِنَ الْغَدِ، وَمَنِ ادَّخَرَ مِنْهُ لِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَسَدَ، وَمَنْ أَخَذَ مِنْهُ قَلِيلًا كَفَاهُ، أَوْ كَثِيرًا لَمْ يَفْضُلْ عَنْهُ، فَيَصْنَعُونَ مِنْهُ مِثْلَ الْخُبْزِ، وَهُوَ فِي غَايَةِ الْبَيَاضِ وَالْحَلَاوَةِ، فَإِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ النَّهَارِ غَشِيَهُمْ طير السلوى، فيقتنصون مِنْهَا بِلَا كُلْفَةٍ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ حَسَبَ كِفَايَتِهِمْ لِعَشَائِهِمْ.

وَإِذَا كَانَ فَصْلُ الصَّيْفِ ظَلَّلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ، وَهُوَ السَّحَابُ الَّذِي يَسْتُرُ عَنْهُمْ حر الشَّمْس وضوءها الباهر.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَذكر تَعَالَى إِنْعَامَهُ عَلَيْهِمْ، وَإِحْسَانَهُ إِلَيْهِمْ، بِمَا يَسَّرَ لَهُمْ مِنَ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى، طَعَامَيْنِ شَهِيَّيْنِ بِلَا كُلْفَةٍ وَلَا سَعْيٍ لَهُمْ فِيهِ، بَلْ يُنَزِّلُ اللهُ الْمَنَّ بَاكِرًا، وَيُرْسِلُ عَلَيْهِمْ

طَيْرَ السَّلْوَى عشيًّا وأنبع المَاء لَهُم بضْرب مُوسَى عليه السلام حَجَرًا كَانُوا يَحْمِلُونَهُ مَعَهُمْ بِالْعَصَا، فَتَنفَجَّرَ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا، لِكُلِّ سبط عين مِنْهُ تنبجس، ثمَّ تتفجر مَاء زلالًا فيستسقون فيشربون وَيَسْقُونَ دَوَابَّهُمْ، وَيَدَّخِرُونَ كِفَايَتَهُمْ، وَظَلَّلَ عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ مِنَ الْحَرِّ.

وَهَذِهِ نِعَمٌ مِنَ اللهِ عَظِيمَةٌ، وَعَطِيَّاتٌ جَسِيمَةٌ، فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا، وَلَا قَامُوا بِشُكْرِهَا وَحَقِّ عِبَادَتِهَا.

ثُمَّ ضَجِرَ كَثِيرٌ مِنْهُم مِنْهَا وَتَبَرَّمُوا بِهَا، وَسَأَلُوا أَنْ يَسْتَبْدِلُوا مِنْهَا بِبَدَلِهَا، مِمَّا تَنْبُتُ بِهِ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا.

فَقَرَّعَهُمُ الْكَلِيمُ وَوَبَّخَهُمْ وَأَنَّبَهُمْ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ وَعَنَّفَهُمْ قَائِلًا: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٦١].

أَيْ: هَذَا الَّذِي تَطْلُبُونَهُ وَتُرِيدُونَهُ بَدَلَ هَذِهِ النِّعَمِ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا حَاصِلٌ لِأَهْلِ الْأَمْصَارِ الصِّغَارِ وَالْكِبَارِ مَوْجُودٌ بِهَا، وَإِذَا هَبَطْتُمْ إِلَيْهَا، أَيْ: وَنَزَلْتُمْ عَنْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ الَّتِي لَا تصلحون لمنصبها تَجِدُونَ بِهَا مَا تَشْتَهُونَ وَمَا تَرُومُونَ مِمَّا ذَكَرْتُمْ مِنَ الْمَآكِلِ الدَّنِيَّةِ وَالْأَغْذِيَةِ الرَّدِيَّةِ، وَلَكِنِّي لَسْتُ أُجِيبكُم إِلَى سُؤال ذَلِكَ هَاهُنَا، وَلَا أُبَلِّغُكُمْ مَا تَعَنَّتُّمْ بِهِ مِنَ الْمُنَى.

وَكُلُّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْمَذْكُورَةِ عَنْهُمُ الصادرة مِنْهُم، تدل على أَنهم لم يَنْتَهُوا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١] أَيْ: فَقَدْ هَلَكَ وَحَقَّ لَهُ وَاللهِ الْهَلَاكُ وَالدَّمَارُ، وَقَدْ حَلَّ عَلَيْهِ غَضَبُ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ.

وَلَكِنَّهُ تَعَالَى مَزَجَ هَذَا الْوَعِيدَ الشَّدِيدَ، بِالرَّجَاءِ لِمَنْ أَنَابَ وَتَابَ وَلَمْ يَسْتَمِرَّ عَلَى مُتَابَعَةِ الشَّيْطَانِ الْمَرِيدِ، فَقَالَ: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾.

مرور نبي الله موسى عليه السلام مع بني إسرائيل على عبَّاد الأصنام

وموقف غير طيب ولا رشيد من بني إسرائيل مع نبيهم موسى عليه السلام

لقد أغرق الله عزوجل فرعون وجنوده أمام أعين بني إسرائيل، وسلم الله عزوجل بني إسرائيل من الغرق وصرف عنهم صنوف الأذى والعذاب التي كانت تحلُّ بهم وتلحق بهم من فرعون وقومه، فكان من اللائق بهم أن يقدموا لذلك شكرًا، بل وشكرًا كثيرًا كثيرًا، ولكن سرعان ما ظهرت من الكثيرين منهم سجايا غير طيبة وأمورًا غير مرضية ولا مُشرفة.

بل أمور مُخزية تدل على جهلهم وقلة شكرهم لقد طلبوا صنمًا يعبدونه!!

لقد سألوا نبيهم موسى عليه السلام إلهًا يعكفون حوله ويصلون له ويسجدون، ويرجونه ويدعونه!!!

الآيات الواردة في ذلك

قال الله تعالى:

﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٩ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٠ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۖ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ﴾.

[الأعراف: ١٣٨-١٤١]

معاني مفردات الآيات المباركات:

الكلمة	معناها
﴿وَجَٰوَزۡنَا﴾	قطعنا (جعلناهم يمرون) سلمناهم حتى جاوزوا البحر.
﴿فَأَتَوۡاْ﴾	فمرُّوا.
﴿يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾	يقيمون على العبادة ويلازمون المكان والعكوف: طول المُكْث والإقامة، والأصنام: تماثيل، وقيل: تماثيل لبقرٍ.
﴿إِلَٰهٗا﴾	معبودًا.
﴿مُتَبَّرٞ﴾	مُهلك؛ والتبار: الهلاك.
﴿وَبَٰطِلٞ﴾	مضمحلٌّ وذاهب.
﴿أَبۡغِيكُمۡ﴾	ألتمس لكم.
﴿ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾	أتباع فرعون ومن هم على طريقته وأهله الذين على دينه وملته.
﴿يَسُومُونَكُمۡ﴾	يحملونكم- يُذيقونكم.
﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ﴾	أسوأ العذاب وأشده وأقبحه.
﴿وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ﴾	يستبقون إناثكم، ويتركون البنات أحياء زيادة في الامتهان والإذلال.
﴿بَلَآءٞ﴾	اختبار، وقيل: نعمة من الله عظيمة (أي: إنجاء الله لكم نعمة عظيمة من الله أنعم بها عليكم).

المعنى الإجمالي للآيات:

ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنه سلَّم بني إسرائيل ونجَّاهم من عدوهم بل وأغرق فرعون وقومه أمام أعينهم، كل ذلك رحمة منه بهم وفضلًا منه عليهم ودلالة على صحة ما يدعو إليه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ، فلما سلمهم الله ونجاهم ووصلوا إلى البرِّ بسلام وأمانٍ مروا على قومٍ يقيمون-ويطيلون المكث والقيام- حول أصنام لهم قد اتخذوها للعبادة يعبدونها ويرجونها ويعظمونها

فقال قوم موسى لموسى عليه السلام لما رأوا ذلك: اجعل لنا إلهًا نعبده ونسأله ونتبرك به كما أن لهؤلاء آلهة، وكان هذا منهم جهل عظيمٌ – خاصة بعد أن رأوا آيات الله عز وجل على يد موسى عليه السلام، وبعد أن سلَّمهم الله من عدوهم لما دعوه فأجابهم –فقال لهم موسى عليه السلام: إنكم قوم تجهلون، تجهلون عظمة ربكم ووحدانيته وما أوجبه عليكم – والله أعلم.

هذا، ولم يرد في تعيين القوم الذين كانوا يعبدون الأصنام، وبيان مَنْ هُم نصٌّ من كتاب الله عز وجل ولا في حديثٍ عن رسول الله ﷺ، ومن ثَمَّ لزمنا الإمساك، والعبرة حاصلة –ولله الحمد– على كل حال، ولو كان في تسميتهم نفع لنا لذُكر اسمهم.

هذا أقوله مع أن هناك من العلماء من قال: إنهم الكنعانيون الذي أُمر موسى عليه السلام بقتالهم، ومن العلماء من قال: إنهم من قبيلة لخم، وثمَّت أقوال أُخر ليس عليها دليل، والله أعلم.

وفي غياب العلم تصدر الجهالات:

قال نبي الله موسى عليه السلام لقومه لما سألوه إلهًا يعبدونه ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ قيل: تجلهون عظمة الله عز وجل، وتجهلون ما أوجبه الله عز وجل عليكم من توحيده، وإفراده بالعبادة فلا تعلمون أنه لا تجوز العبادة لشيءٍ سوى الله عز وجل.

هذا، وقد صدر من بعض الصحابة شيءٌ مثل هذا زمن رسول الله ﷺ، فقد أخرج الترمذي وأحمد وغيرهما ما حاصله أن رسول الله ﷺ لما خرج مع أصحابه إلى حنين، وكان للكفار شجرة (شجرة سدرٍ) يقال لها: ذات أنواط يعلقون بها أسلحتهم ويعكفون عندها، فقال بعض أصحابه: يا نبي الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لموسَى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ إِنَّكُم سَتَرْكَبُونَ سَنَنَ الذِينَ مِنْ قَبْلِكُم....»[1].

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وأحمد (٥/ ٢١٨).

وأعود قائلًا: إن نبي الله موسى عليه السلام لما سأله قومه أن يجعل لهم إلهًا كما للقوم آلهة وحذَّرهم وزجرهم وذكَّرهم، أخبرهم بمصير هؤلاء القوم الذين يعكفون على أصنام لهم فقال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ﴾ أي: أن الله عز وجل مهلك هذه الأصنام والأعمال التي هم فيها ومُفسدها ومُخسرهم فيها ومجازيهم عليها بالعذاب المهين، ثم إن أعمالهم عمومًا ذاهبة وباطلة لا ثواب لهم فيها ولا أجر لهم عليها فكل أعمالهم تحبط كما قال تعالى في شأن أهل الشرك عمومًا: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وكما قال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وكما قال تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

ثم قال موسى عليه السلام لقومه: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠].

ومعناه - والله تعالى أعلم-: أفغير الله ألتمس لكم معبودًا تعبدونه، والله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد منَّ عليكم بالنعم التي منها تفضيلكم على العالمين، فكيف أعدل عن عبادة ربي عز وجل الذي لا يستحق العبادة سواه، والذي منَّ عليكم بالنعم العظيمة التي منها تفضيلكم على العالمين، فكيف أعدل عن عبادته وأبحث عن ربٍّ سواه ليعُبد؟!! وكما هو معلوم فإن المعبودات سوى الله عز وجل لا تنفع ولا تضر كما قال الخليل إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ﴾.

و قوله: ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: على العالمين في زمانهم.

وثمَّ وجهٌ آخر أنهم فضلوا على العالمين كلهم بكثرة الأنبياء فيهم، أي: بشيء مخصوص، وهو كثرة الأنبياء فيهم كما قال موسى عليه السلام: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

وفي الحديث: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ أَنْبِيَاؤُهُمْ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ»[1] الحديث - والله أعلم.

وقيل: فضَّلَهم بإهلاك عدوهم، وبالآيات التي أُيِّد بها نبيهم ﷺ.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال موسى لقومه: أسِوَى الله ألتمسكم إلهًا، وأجعل لكم معبودًا تعبدونه، والله الذي هو خالقكم، فضلكم على عالمي دهركم وزمانكم؟ يقول: أفأبغيكم معبودًا لا ينفعكم ولا يضركم تعبدونه، وتتركون عبادة من فضلكم على الخلق؟ إن هذا منكم لجهل!

ثم، وبعد ذِكر ما حصل لبني إسرائيل من سؤالهم إلهًا يعبدونه وإنكار موسى عليه السلام عليهم هذا الطلب وبيانٌ لجهلهم، وتذكيرهم بنعم الله عليهم يتوالى تذكير اليهود الموجودين في مدينة رسول الله ﷺ فيقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ أي: أنجينا أجدادكم وأسلافكم، فإنجاء الأجداد، إنجاءٌ للأحفاد والأبناء فهذا تذكيرٌ لبني إسرائيل بنعم الله عز وجل حتى يثبتوا على الإيمان،ويقدموا لتلك النعم شكرًا فيقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ أي: واذكروا وقت إنجائنا لكم من آل فرعون، وهم أتباعه وأنصاره ومن هم على دينه وملته، فقد كانوا ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ أي: يُذيقونكم ويحملونكم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أسوأ العذاب وأقبحها ومنها أن كانوا ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي: الذكور. ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي: ويتركون النساء أحياء للخدمة والامتهان، وفي ذلكم ﴿بَلَآءٌ﴾ قيل: المراد به أنه كان اختبارًا عظيمًا، وقيل: (بلاء) المراد به هنا: النعمة فقد كان إنجاؤكم نعمة عظيمة أنعم الله بها عليكم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لليهود من بني إسرائيل الذين كانوا بين ظهراني مهاجَر

---

(١) البخاري (حديث ٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا. واللفظ لمسلمٍ.

رسول الله ﷺ: واذكروا مع قيلكم هذا الذي قلتموه لموسى بعد رؤيتكم من الآيات والعبر، وبعد النعم التي سلفت مني إليكم، والأيادي التي تقدمت فعلتم ما فعلتم ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، وهم الذين كانوا على منهاجه وطريقته في الكفر بالله من قومه ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، يقول: إذ يحملونكم أقبح العذاب وسيئه.

وقد بينا فيما مضى من كتابنا هذا ما كان العذاب الذي كان يسومهم سيئه.

﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾، الذكورَ من أولادهم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾، يقول: يستبقون إناثهم ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، يقول: وفي سومهم إياكم سوء العذاب، اختبار من الله لكم ونعمة عظيمة.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ (قصص الأنبياء):

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ الْمُهَيْمِنِ عَلَى مَا عَدَاهُ مِنَ الْكُتُبِ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٣٩]، قَالُوا هَذَا الْجَهْلَ وَالضَّلَالَ، وَقَدْ عَايَنُوا مِنْ آيَاتِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ، مَا دَلَّهُمْ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَهُمْ بِهِ رَسُولُ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ مَرُّوا عَلَى قَوْمٍ يَعْبُدُونَ أَصْنَامًا، قِيلَ: كَانَتْ عَلَى صُوَرِ الْبَقَرِ، فَكَأَنَّهُمْ سَأَلُوهُمْ: لِمَ يَعْبُدُونَهَا؟ فَزَعَمُوا لَهُمْ أَنَّهَا تَنْفَعُهُمْ وَتَضُرُّهُمْ، وَيَسْتَرْزِقُونَ بِهَا عِنْدَ الضَّرُورِيَّاتِ، فَكَأَنَّ بَعْضَ الْجُهَّالِ مِنْهُمْ صَدَّقُوهُمْ فِي ذَلِكَ، فَسَأَلُوا نَبِيَّهُمُ الْكَلِيمَ الْكَرِيمَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ آلِهَةً كَمَا لِأُولَئِكَ آلِهَةٌ، فَقَالَ لَهُمْ مُبَيِّنًا لَهُمْ أَنَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَا يَهْتَدُونَ: **﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾**.

ثُمَّ ذَكَّرَهُمْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْهِمْ، فِي تَفْضِيلِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى عَالِمِي زَمَانِهِمْ بِالْعِلْمِ وَالشَّرْعِ، وَالرَّسُولِ الَّذِي بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، وَمَا أَحْسَنَ بِهِ إِلَيْهِمْ وَمَا امْتَنَّ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ إِنْجَائِهِمْ مِنْ قَبْضَةِ فِرْعَوْنَ الْجَبَّارِ الْعَنِيدِ، وَإِهْلَاكِهِ إِيَّاهُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ، وتوريثه

إيَّاهُم ماكان فِرْعَوْنُ وَمَلَؤُهُ يَجْمَعُونَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالسَّعَادَةِ، وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ، وَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ لَا تَصْلُحُ الْعِبَادَةُ إِلَّا لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لِأَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْقَهَّارُ، وَلَيْسَ كُلُّ بَنِي إِسْرَائِيل سَأَلَ هَذَا السُّؤَال، بل هَذَا الضَّمِيرُ عَائِدٌ عَلَى الْجِنْسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ أَيْ: قَالَ بَعْضُهُمْ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٧، ٤٨]، فَالَّذِينَ زَعَمُوا هَذَا بعض النَّاس لا كلهم.

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ سِنَانِ بْنِ أَبِي سِنَانٍ الدِّيلِيِّ عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قبل حنين، فمررنا بسدرة فَقُلْنَا يَا رَسُول الله اجْعَل لنا هَذِه ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لِلْكُفَّارِ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. وَكَانَ الْكَفَّارُ يَنُوطُونَ سِلَاحَهُمْ بِسِدْرَةٍ وَيَعْكُفُونَ حَوْلَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اللهُ أَكْبَرُ! هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، إِنَّكُمْ تَرْكَبُونَ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**»(١).

قلت (مصطفى): وبعد أن أغرق الله عَزَّوَجَلَّ فرعون وجنده واستراحت منهم البلاد والعباد ورث الإسرائيليون مشارق الأرض المباركة ومغاربها جزاء صبرهم وحل الخراب والدمار بما صنعه فرعون وقومه من أماكن الشر والفساد والفسق والفجور، وآلات التعذيب.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

فالقوم الذين كانوا يُستضعفون في الأرض هم بنو إسرائيل كان فرعون

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢١٨)، والترمذي (٤/ ٢١٨٠)، وغيرهما.

وقومه يستضعفونهم ويستذلونهم ويهينونهم ويسخرونهم ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم إلى غير ذلك من صور العذاب كما قال تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾.

أما مشارق الأرض ومغاربها، وأي أرض هذه فمن هم من ذهب إلى أن هذه الأرض هي أرض مصر بدليل قوله تعالى في شأن فرعون وقومه: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩]

وقوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

ومن المعلوم أن فرعون وقومه كانوا يسكنون مصر.

ولكن قد يشكل عل هذا القول أمران:

أحدهما: هل أرض مصر بُورك فيها؛ إذا قال الله: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾؟

والآخر: كيف قيل ذلك، وموسى ومعه قومه الإسرائيليون قد تجاوزا البحر؟

والجواب على الأول: أن معنى باركنا فيها المراد بالبركة فيها: كثرة ما أخرج الله فيها من الثمار والنبات والفواكه وعموم الحدائق والبساتين والمزارع والأنهار، فالبركة بهذا الاعتبار.

والجواب على الثاني: أنه لا يمتنع أن يكون موسى عليه السلام ومن معه رجعوا ثانية إلى مصر فكانوا بينها وبين الشام، والله أعلم.

القول الثاني: أن الأرض التي بُورك فيها للعالمين هي أرض الشام وعلى هذا القول كثير من أهل العلم.

هذه وكلمة ربنا الحسنى هي قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ

فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٥، ٦].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾، فإنه يقول: وَفَى وعدُ الله الذي وعد بني إسرائيل بتمامه، على ما وعدهم، من تمكينهم في الأرض، ونصره إياهم على عدوّهم فرعون، و«كلمته الحسنى»، قوله جل ثناؤه: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ أي: بسبب صبرهم على الأذى الذي لحقهم من فرعون وقومه وكذا صبرهم بعد الإيمان بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على ما كُلِّفوا به من تكاليف وأُمروا من أوامر، والله أعلم.

وهكذا فالصبر ابتغاء وجه الله دائمًا عاقبته إلى خير وكذا الصبر على أوامر الله بامتثالها ولزومها والصبر على النواهي باجتنابها والامتناع عنها كل ذلك عاقبته بإذن الله إلى خير، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾. وقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ إلى غير ذلك.

قوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾.

الكلمة	معناها
﴿بَوَّأْنَا ﴾	أنزلنا.
﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾	منزلًا مباركًا محمودًا.

ومعنى الآية الكريمة – والله أعلم-: ولقد أنزلنا بني إسرائيل منازل محمودة مباركة كثيرة خيراتها، وكثيرة زروعها، قيل: إنها مصر، وقيل: الشام، ومنها الأردن وفلسطين، وقيل: إن المراد بني إسرائيل الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ وهم بنو قريظة وبنو النضير.

والظاهر الأول، أي: أنها مصر، وذلك؛ لأن فرعون كان بمصر، وقد أغرقه الله عَزَّوَجَلَّ وقال تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٧-٢٨]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

ولا يمنع أيضًا أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ أنزلهم منازل مباركة طيبة أخرى كالشام وغيرها – والله أعلم.

ثم إن الله عَزَّوَجَلَّ رزقهم مع هذه المنازل الطيبة الثمرات الطيبة والمطاعم الطيبة فساروا على نهج واحد على ما هم عليه ولكن لما جاءهم المعلوم لديهم والموصوف عندهم، وهو النبي محمد ﷺ وما معه من القرآن الذي أنزله الله عليه حدث بينهم اختلاف فمنهم من آمن وصدق، ومنهم من تولى واستغنى ثم أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنه يقضي بينهم يوم القيامة، فيما كانوا يختلفون فيه في دنياهم ويجازي كلًّا بما يستحق.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ولقد أنزلنا بني إسرائيل منازلَ صِدْق.

قيل: عني بذلك الشأم وبيت المقدس.

وقيل: عُنِي به الشأم ومصر. وقوله:﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، يقول: ورزقنا بني إسرائيل من حلال الرزق وهو (الطيب).

وقوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾، يقول جل ثناؤه: فما اختلف هؤلاء الذين فعلنا بهم هذا الفعل من بني إسرائيل، حتى جاءهم ما كانوا به عالمين.

وذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمد النبيّ ﷺ مجمعين على نبوّة محمدٍ والإقرار به وبمبعثه، غير مختلفين فيه بالنعت الذي كانوا يجدونه مكتوبًا عندهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعضهم وآمن به بعضهم، والمؤمنون به منهم كانوا عددًا قليلا. فذلك قوله: فما اختلفوا حتى جاءهم المعلوم الذي كانوا يعلمونه نبيًّا لله فوضع ﴿ٱلۡعِلۡمُ﴾ مكان (المعلوم).

وكان بعضهم يتأول ﴿ٱلۡعِلۡمُ﴾ ههنا، كتابَ الله ووحيَه.

وأورد بسندٍ صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿فَمَا ٱخۡتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾، قال: ﴿ٱلۡعِلۡمُ﴾، كتاب الله الذي أنزله، وأمره الذي أمرهم به، وهل اختلفوا حتى جاءهم العلم بغيًا بينهم ؟ أهل هذه الأهواء، هل اقتتلوا إلا على البغي قال: و«البغي» وجهان: وجه النفاسة في الدنيا ومن اقتتل عليها من أهلها، وبغى في «العلم»، يرى هذا جاهلًا مخطئًا، ويرى نفسه مصيبًا عالمًا، فيبغي بإصابته وعلمه عَلَى هذا المخطئ.

قال الطبري:

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إن ربَّك، يا محمد، يقضي بين المختلفين من بني إسرائيل فيك يوم القيامة، فيما كانوا فيه من أمري في الدنيا يختلفون، بأن يدخل المكذبين بك منهم النار، والمؤمنين بك منهم الجنة، فذلك قضاؤه يومئذ فيما كانوا فيه يختلفون من أمر محمد ﷺ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدينية والدنيوية فـ﴿مُبَوَّأَ صِدۡقٍ﴾ قيل: هو بلاد مصر والشام، مما يلي بيت المقدس ونواحيه، فإن الله تعالى لما أهلك فرعون وجنوده استقرت يد الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ

ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾[الأعراف: ١٣٧] وقال في الآية الأخرى: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩]، وقال: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الدخان: ٢٥]، ولكن استمروا مع موسى عليه السلام طالبين إلى بلاد بيت المقدس وهي بلاد الخليل عليه السلام فاستمر موسى بمن معه طالبًا بيت المقدس وكان فيه قوم من العمالقة، فنكل بنو إسرائيل عن قتال العمالقة فشردهم الله تعالى في التيه أربعين سنة، ومات فيه هارون، ثم موسى عليهما السلام، وخرجوا بعدهما مع يوشع بن نون، ففتح الله عليهم بيت المقدس، واستقرت أيديهم عليها إلى أن أخذها منهم بختنصر حينًا من الدهر، ثم عادت إليهم، ثم أخذها ملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم مدة طويلة، وبعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام في تلك المدة، فاستعانت اليهود -قبحهم الله -على معاداة عيسى عليه السلام بملوك اليونان، وكانت تحت أحكامهم، ووشوا عندهم، وأوحوا إليهم أن هذا يفسد عليكم الرعايا فبعثوا من يقبض عليه، فرفعه الله إليه، وشُبّه لهم بعض الحواريين بمشيئة الله وقدره فأخذوه فصلبوه، واعتقدوا أنه هو، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨] ثم بعد المسيح عليه السلام بنحو من ثلاثمائة سنة، دخل قسطنطين أحد ملوك اليونان -في دين النصرانية، وكان فيلسوفًا قبل ذلك. فدخل في دين النصارى قيل: تقية، وقيل: حيلة ليفسده، فوضعت له الأساقفة منهم قوانين وشريعة وبدعًا أحدثوها، فبنى لهم الكنائس والبيَع الكبار والصغار، والصوامع والهياكل، والمعابد، وَالْقَلَايَاتِ. وانتشر دين النصرانيةفي ذلك الزمان، واشتهر على ما فيه من تبديل وتغيير وتحريف، ووضع وكذب، ومخالفة لدين المسيح. ولم يبق على دين المسيح على الحقيقة منهم إلا القليل من الرهبان، فاتخذوا لهم الصوامع في البراري والمهامة والقفار، واستحوذت يدُ النصارى على مملكة الشام والجزيرة وبلاد الروم، وبنى هذا الملك المذكور

مدينة قسطنطينية، والقُمَامة، وبيت لحم، وكنائس بلاد بيت المقدس، ومدن حَوْران كبُصرى وغيرها من البلدان بناءات هائلة محكمة، وعبدوا الصليب من حينئذ، وصلوا إلى الشرق، وصوروا الكنائس، وأحلوا لحم الخنزير، وغير ذلك مما أحدثوه من الفروع في دينهم والأصول، ووضعوا له الأمانة الحقيرة، التي يسمونها الكبيرة، وصنفوا له القوانين، وبسط هذا يطول.

والغرض أن يدهم لم تزل على هذه البلاد إلى أن انتزعها منهم الصحابة رضي الله عنهم وكان فتح بيت المقدس على يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولله الحمد والمنة.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: الحلال، من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعًا وشرعًا.

وقوله: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم، أي: ولم يكن لهم أن يختلفوا، وقد بين الله لهم وأزال عنهم اللبس. وقد ورد في الحديث: «**أن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة، وأن النصارى اختلفوا على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، منها واحدة في الجنة، وثنتان وسبعون في النار**». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «**ما أنا عليه وأصحابي**»[1] رواه الحاكم في مستدركه بهذا اللفظ، وهو في السنن والمسانيد ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾، أي: يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي: منزل صدق محمود مختار، يعني مصر. وقيل: الأردن وفلسطين. وقال الضحاك: هي مصر والشام.

---

(١) وذكر الافتراق يصح بطرقه، ولكن الزيادات من قوله: «كلها في النار» فما بعدها ضعيفة والله أعلم.

﴿وَرَزَقْنَٰهُمْ مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: من الثمار وغيرها. وقال ابن عباس: يعني قريظة والنضير وأهل عصر النبي ﷺ من بني إسرائيل؛ فإنهم كانوا يؤمنون بمحمد ﷺ وينتظرون خروجه، ثم لما خرج حسدوه؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ﴾ أي: في أمر محمد ﷺ. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: القرآن، ومحمد ﷺ. والعلم بمعنى: المعلوم؛ لأنهم كانوا يعلمونه قبل خروجه؛ قال ابن جرير الطبري: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ أي: يحكم بينهم ويفصل. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا، فيثيب الطائع ويعاقب العاصي.

شيءٌ من نعم الله عَزَّوَجَلَّ على بني إسرائيل

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٠-٨٢].

معاني مفردات الآيات المباركات:

الكلمة	معناها
﴿ٱلْمَنَّ﴾	شيء يشبه العسل كان ينزل على ورق الشجر شهيٌّ في طعمه وجميل.
﴿وَٱلسَّلْوَىٰ﴾	طائر يشبه السمان.
﴿وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ﴾	لا تتجاوزوا الحد في الأكل، ولا تجاوزوا الحد في الظلم.
﴿يَحْلِلْ﴾	ينزل.
﴿هَوَىٰ﴾	سقط في الهاوية وهي النار.

المعنى الإجمالي: المعنى، هذا والله أعلم امتنان من الله عَزَّوَجَلَّ على بني إسرائيل بما أنعم عليهم، وتكليف لهم وحث على الطاعة والإنابة والرجوع إلى

الله فيقول تعالى ذكره يا بني إسرائيل وهم نسلُ يعقوب عليه السلام، ومنهم موسى عليه السلام، وبنو إسرائيل الذين معه، فيذكرهم الله بنعمه قائلًا ﴿قَدْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ قد سلمناكم وحفظناكم ﴿مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ الذي هو فرعون وقومه ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ﴾ أعطينا موسى عليه السلام ومعه بعض بني إسرائيل موعدًا كما قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ وقال بعض العلماء إن المواعدة كانت لموسى عليه السلام وحده لإنزال التوراة عليه، ولما كان إنزال التوراة إنما هو لأهل بني إسرائيل أطلقت المواعدة وكانت عامةً بقوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ﴾.

أما قوله: ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ فالمراد الجانب الأيمن من الطور، طور سيناء. وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ﴾ وهو شيء يشبه العسل في الطعم كان ينزل على ورق الشجر وقيل: المن هو طعام أخرجه الله لبني إسرائيل وهم في التيه بدون تعبٍ منهم ولا مشقة، أما السلوى فإنها طائر يشبه السمان وقد تقدم الكلام على كل ذلك في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ كلوا من الحلال الطيب الذي رزقكم الله إياه، ولا تتجاوزوا الحد فيه، وقيل المراد لا تسرفوا كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾، وقيل: لا يبغي بعضكم على بعض فيه ولا يظلم بعضكم بعضًا، ولا تعصوا ربكم ولا تكفروا النعم فإنكم إن منعتم فقد حلَّ عليكم غضبي ونزل بكم ومن ينزل عليه غضبي فقد هلك وسقط في النار هاويًا فيها ووصل إلى قعرها ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ من الشرك وغيره ﴿وَءَامَنَ﴾ وعبد الله وحده لا شريك له واستقام على العمل الصالح وسلك سبيل الهداية وأقام على ذلك حتى مات.

قال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ لما أنجاهم من فرعون قال لهم هذا ليشكروا. ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ﴾ ﴿جَانِبَ﴾ نصب على المفعول الثاني لـ«واعدنا» ولا يحسن أن ينتصب على الظرف؛ لأنه ظرف مكان محض

غير مبهم. وإنما تتعدى الأفعال والمصادر إلى ظروف المكان بغير حرف جر إذا كانت مبهمة. قال مكي: هذا أصل لا خلاف فيه؛ وتقدير الآية: وواعدناكم إتيان جانب الطور؛ ثم حذف المضاف. قال النحاس: أي أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه ليكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام. وقيل: وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتي جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة، فالوعد كان لموسى ولكن خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهم. وقرأ أبو عمرو (ووعدناكم) بغير ألف واختاره أبو عبيد؛ لأن الوعد إنما هو من الله تعالى لموسى خاصة، والمواعدة لا تكون إلا من اثنين. و﴿ٱلْأَيْمَنَ﴾ نصب؛ لأنه نعت للجانب وليس للجبل يمين ولا شمال، فإذا قيل: خذ عن يمين الجبل فمعناه خذ على يمينك من الجبل. وكان الجبل على يمين موسى إذ أتاه. ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ أي: في التيه وقد تقدم القول فيه. ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي: من لذيذ الرزق. وقيل: من حلاله إذ لا صنع فيه لآدمي فتدخله شبهة. ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ أي: لا تحملنكم السعة والعافية أن تعصوا؛ لأن الطغيان التجاوز إلى ما لا يجوز. وقيل: المعنى؛ أي: لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكر المنعم بها عليكم. وقيل: أي: ولا تستبدلوا بها شيئًا آخر كما قال: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، وقيل: لا تدخروا منه لأكثر من يوم وليلة؛ قال ابن عباس: فيتدود عليه ما ادخروه؛ ولولا ذلك ما تدود طعام أبدًا. ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي يجب وينزل.

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: فلما نجا موسى بقومه من البحر، وغشي فرعون قومه من اليم ما غشيهم قلنا لقوم موسى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ فرعون ﴿وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ وقد ذكرنا كيف كانت مواعدة الله موسى وقومه جانب الطور الأيمن. وقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا

﴿رَزَقْنَٰكُمْ﴾ يقول تعالى ذكره لهم: كلوا يا بني إسرائيل من شهيات رزقنا الذي رزقناكم، وحلاله الذي طيبناه لكم ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ﴾ يقول: ولا تعتدوا فيه، ولا يظلم فيه بعضكم بعضًا.

وقوله: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ يقول: فينزل عليكم عقوبتي.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة قوله: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ يقول: فينزل عليكم غضبي.

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾.

يقول تعالى ذكره: ومن يجب عليه غضبي، فينزل به. فقد هوى، يقول: فقد تردّى فشقي.

وقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ يقول: وإني لذو غفر لمن تاب من شركه، فرجع منه إلى الإيمان لي ﴿وَءَامَنَ﴾ يقول: وأخلص لي الألوهة، ولم يشرك في عبادته إياي غيري. ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يقول: وأدّى فرائضي التي افترضتها عليه، واجتنب معاصيَّ ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ يقول: ثم لزم ذلك فاستقام ولم يضيع شيئًا منه.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ فقال بعضهم: معناه لم يشكُك في إيمانه.

وقال آخرون: ثم استقام.

وقال آخرون: معنى ذلك: ثم لزم الإيمان والعمل الصالح.

وقال آخرون: بل معناه أصحاب العمل. وقاله آخرون: بل معناه عرف أمر مُثيبه.

قال أبو جعفر: إنما اخترنا القول الذي اخترنا في ذلك، من أجل أن الاهتداء هو الاستقامة على هدى، ولا معنى للاستقامة عليه إلا وقد جمعه الإيمان والعمل الصالح والتوبة، فمن فعل ذلك وثبت عليه فلا شكّ في اهتدائه.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يذكر تعالى نعمه على بني إسرائيل العظام، ومننه الجسام، حيث نَجَّاهم من عدوهم فرعون، وأقر أعينهم منه، وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة، لم ينج منهم أحد، كما قال: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

ثم إنه تعالى واعد موسى وبني إسرائيل بعد هلاك فرعون إلى جانب الطور الأيمن، وهو الذي كلمه تعالى عليه، وسأل فيه الرؤية، وأعطاه التوراة هناك. وفي غُضُون ذلك عَبَدَ بنو إسرائيل العجل، كما يقصه تعالى قريبًا.

وأما المن والسلوى، فقد تقدم الكلام على ذلك في سورة «البقرة» وغيرها. فالمن: حلوى كانت تنزل عليهم من السماء. والسّلوى: طائر يسقط عليهم، فيأخذون من كل قدر الحاجة إلى الغد، لطفًا من الله ورحمة بهم، وإحسانًا إليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي: كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم، ولا تطغوا في رزقي، فتأخذوه من غير حاجة، وتخالفوا ما أمرتكم به، ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى﴾ أي: أغضب عليكم ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾

وقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: كل من تاب إليّ تبتُ عليه من أي ذنب كان، حتى إنه تعالى تاب على من عبد العجل من بني إسرائيل.

وقوله: ﴿تَابَ﴾ أي: رجع عما كان فيه من كفر أو شرك أو نفاق أو معصية.

وقوله: ﴿وَءَامَنَ﴾ أي: بقلبه ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: بجوارحه.

وقوله: ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: أي ثم لم يشكك.

ذهاب موسى عليه السلام لتكليم ربه عز وجل وما كان منه في ذلك

قال الله تعالى:

﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاسَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٤٢-١٤٧].

معاني مفردات الآيات المباركات:

الكلمة	معناها
﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾	للموعد الذي وقتناه له- الزمن الذي حُدد له كي يكلمه الله.
﴿دَكّٗا﴾	مُفَتَّتًا- تُرابًا- مستويًا بالأرض.
﴿وَخَرَّ﴾	سقط.
﴿صَعِقٗا﴾	مغشيًّا عليه.
﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾	تنزيهًا لك وتبرئةً أن يراك أحدٌ في الدنيا.

الكلمة	معناها
﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾	رجعت إليك عن مسألتي التي سألتها وعن غيرها مما لا يُرضيك.
﴿ٱصْطَفَيْتُكَ﴾	فضلتك- اخترتك.
﴿بِرِسَٰلَتِى﴾	بجعلك رسولًا إلى خلقي، وبما حبيتك به من جعلك رسولًا، وبما أنزلته عليك من التوراة.
﴿وَبِكَلَٰمِى﴾	بتكليمي لك.
﴿مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾	ما أعطيتك.
﴿ٱلْأَلْوَاحِ﴾	ألواح أنزلها الله لموسى عليه السلام فيها هدايةٌ وأحكامٌ وشرائع لبني إسرائيل.
﴿مَّوْعِظَةً﴾	تذكيرًا.
﴿وَتَفْصِيلًا﴾	تبيانًا.
﴿بِقُوَّةٍ﴾	بجدٍّ واجتهادٍ ونشاط- بعزمٍ أكيد على الطاعة- بطاعةٍ وامتثال.
﴿يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾	يعملوا بأحسن ما فيها – بالعزيمة – بأشد مما أمر به قومه.
﴿سَأُو۟رِيكُمْ﴾	سأطلعكم (على دار الفاسقين).
﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾	مصير الفاسقين- جهنم- وقيل: مساكن الفراعنة- وقيل: مساكن الجبابرة بالشام.
﴿ءَايَٰتِىَ﴾	حُجَجِي وبراهيني- وقيل: التوراة- وقيل: المعجزات.
﴿كُلَّ ءَايَةٍ﴾	كل معجزة- كل دليل- كل حجة على وحدانية الله.
﴿سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ﴾	طريق النجاة والسلامة والهداية – الرشد في الدين الصلاح والاستقامة – الحق والرشاد
﴿سَبِيلَ ٱلْغَىِّ﴾	طريق الهلاك والضلال والغواية.
﴿غَٰفِلِينَ﴾	لاهين- مهملين- تاركين.
﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾	بطلتْ وذهب ثوابها.

المعنى الإجمالي للآيات المباركات:

يذكِّرنا ربنا سبحانه وتعالى أنه واعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يأتيه موسى كي يكلمه ربُّه عَزَّوَجَلَّ ويوحي إليه وحيًا يكون فيه الهدى لبني إسرائيل من الضلالة، والبصيرة من العمى وأن يعطيه الألواح فيها موعظة لبني إسرائيل، وفيها الأحكام والشرائع التي شرعها الله عَزَّوَجَلَّ لهم.

فهذا الوعدُ كان لتكليم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وإعطائه التوراة التي فيها الأحكام وتفصيل الشرائع، كذا قال غير واحد من أهل العلم، وهذا القول صحيح فيما يبدو، والله أعلم؛ وذلك لقوله تعالى- وسيأتي قريبًا إن شاء الله- ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

وهذا الوعد أولًا كان ثلاثين ليلة، ثم إن الله عَزَّوَجَلَّ أمهله عشرة ليال أُخر فتم ميقاتُ ربه أربعين ليلة، وقيل إن المعنى: إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أتم المدة والوقت الذي واعده ربه عَزَّوَجَلَّ وهو أربعين ليلة.

هذا، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن الثلاثين ليلة هي شهر ذي القعدة، والعشر هي العشر الأول من ذي الحجة، كذا قال البعض - فالله أعلم.

ولا أعلم شيئًا ثابتًا عن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك.

هذا، ومن العلماء من قال: إن هنا مناسبةٌ بين اليوم الذي تمَّ فيه الميقاتُ وبين اليوم الذي أكمل الله لهذه الأمة دينها يوم عرفة وفيه نزل: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾، والله أعلم.

وإن قال قائل: قد عُلم أن الثلاثين والعشر أربعون فلماذا قال تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾؟

فجوابه: قال بعض أهل العلم: قد ذُكرت الأربعين؛ لدفع توهم حاصله أنه قد يظن أن العشر داخلة في الثلاثين، ومن تمام الثلاثين فَذُكرت الأربعون لبيان أن

العشر كانت بعد الثلاثين.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد عُلم أن ثلاثين وعشرة أربعون؛ لئلا يتوهم أن المراد أتممنا الثلاثين بعشرٍ منها، فبين أن العشر سوى الثلاثين. هذا، والله أعلم.

هذا، وقبيل انقضاء الأربعين ليلة بدأ موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ التجهز للذهاب لتكليم ربه عَزَّوَجَلَّ، ووصَّى أخاه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ بوصية، وذكَّره بتذكرة، والذكرى تنفع المؤمنين، أوصاه إجمالًا بالإصلاح، ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين.

وها هي وصية[1] موسى لهارون عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

المعنى - والله تعالى أعلم-: أن نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أراد الذهاب لتكليم ربِّه عَزَّوَجَلَّ وتلقِّي الأوامر والشرائع أوصى أخاه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال له: كن خليفتي من بعدي في قومي- الذين هم بنو إسرائيل- واؤمرهم بطاعة الله وارفق بهم وانظر ما ينفعهم فافعله واؤمرهم به، وانظر ما يضرهم فابتعد عنه وانهاهم عنه ولا تسلك سبيل العصاة والغُواة ولا تكن عونًا للظالمين على ظلمهم.

---

(١) وأذكر هنا أيضًا بأن النبي ﷺ استخلف عليًّا لما خرج إلى تبوك فقال عليٌّ: «أتخلفني في الصبيان والنساء»؟ قال: «**ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبي بعدي**» أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤).

والحديث ليس بصريح في استخلاف عليٍّ؛ لأن ذلك كان في بعض مغازي النبي ﷺ، وليس بعد موته، ثم إنه قد وردت أحاديث أُخر تُشعر- وليست صريحه أيضًا- بأحقية غير عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخلافة، وذلك كما قال النبي ﷺ في مرض موته «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**» [أخرجه البخاري (٦٧٩)، ومسلم (٤١٨)].

وقوله للمرأة التي سألته إن جئت فلم أجدك؛ قال: «**إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَائْتِ أَبَا بَكْرٍ**» [أخرجه البخاري (٣٦٥٩)، ومسلم (٢٣٨٦)].

ثم إن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما طعن وقيل له: استخلف يا أمير المؤمنين، قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خيرٌ مني (يعني: أبا بكر) وإن أترككم فقد تركككم من هو خيرٌ مني رسول الله ﷺ [أخرجه مسلم (١٨٢٣)].

فدلّ ذلك على أن رسول الله ﷺ لم يستخلف بعد موته أحدًا، والله أعلم.

موسى عليه السلام يطلب رؤية الله عز وجل وعدم تحقق ذلك

أعود فأقول، وماذا كان لما جاء موسى لميقات ربه قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾.

هذا معناه -والله أعلم-: أن الله عز وجل واعد موسى عليه السلام أن يأتيه موسى في مكان حدده الله له ليكمل موسى فيه، وذلك بعد مضي زمنٍ معين (أربعين ليلة) فلما جاء موسى عليه السلام عند انقضاء الزمن الذي حُدِّد له، وتفضَّل الله عليه بأن كلمه ومنَّ عليه بهذه الفضيلة العظمى (تكليم الله له) طلب موسى عليه السلام أن يرى ربَّه عز وجل فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ فسأل الله هذه الفضيلة العظمى الأخرى، وهي النظر إلى وجه الله فقال الله له ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾.

ثم أمره الله عز وجل بالنظر إلى الجبل فقال: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ هكذا كان الحال، خرَّ موسى مغشيًّا عليه لما تجلى ربُّه للجبل فَدُكَّ الجبل دكًّا، وثمَّ حديث بإسنادٍ على شرط مسلم أخرجه أحمد وعدد من أهل العلم[1] من طرق كثيرة عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ قال: «**أَخْرَجَ خِنْصَرَهُ فَضَرَبَ عَلَى إِبْهَامِهِ فَسَاخَ فِي الجَبَل**» قال حميد لثابت تُحدث بمثل هذا، فضرب بيده في صدره وقال يقوله أنس ويقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم وأكتمه.

فالحاصل أن الجبل لما دُكَّ خرَّ موسى عليه السلام صعقًا!! صُعِقَ موسى عليه السلام!!

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فلما أفاق موسى من الصعقة قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ تنزهت يا رب عن كل ما لا يليق بك،

---

(١) انظر أحمد في «المسند» (٣/ ٢٠٩/ ١٢٥) والترمذي (٣٠٨٥)، والحاكم (١/ ٢٥) والطبري عند تفسير الآية وغير هؤلاء جمٌّ غفير، ولمزيد انظر «القول المسدد في الذب عن مسند أحمد».

وتنزهت عن أن يحدث شيءٌ في الكون بغير إذنك ورضاك ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ عن مسألتي رؤيتك وتبت إليك لكوني سألت من غير استئذان وتبت إليك من كل فعلٍ أو قولٍ أو شيءٍ فعلته لا يرضيك.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأجمعت الأمة على أن هذه التوبة ما كانت عن معصية، فإن الأنبياء معصومون.

أما قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فكيف يوجَّه وقد كان هنالك مؤمنون قبله.

فأقول: وجه ذلك العلماء ببعض التوجيهات:

أحدها: وأنا أول المؤمنين بأنه لن يراك أحدٌ في الدنيا.

الثاني: وأنا أول المؤمنين من بني إسرائيل، وهذا القول به ضعف؛ لأن بني إسرائيل كان منهم أنبياء ورسل قبل موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

الثالث: وأنا أول المؤمنين من بني إسرائيل بأنه لن يراك أحد في الدنيا.

الرابع: أن ذلك قيل على جهة الإنابة إلى الله والخشوع له عند ظهور الآيات.

دفع شبهة

قد يقول قائل: إن قول الله عَزَّ وَجَلَّ لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ قد يفيد أن المؤمنين لن يروا ربهم في الآخرة فكيف يدفع هذا الإشكال؟

فأقول جوابًا على ذلك: إن قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ إنما ذلك في الدنيا، أما في الآخرة فلا، وذلك لورود النصوص الصريحة برؤية المؤمنين ربهم عَزَّ وَجَلَّ في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وكقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٦]، وتفسير الزيادة بأنها النظر إلى وجه الله عَزَّ وَجَلَّ[١] وكقوله ﷺ: «**إِنكُمْ سَتَرَوْنَ رَبّكُم عَيَانًا**»[٢].

---

(١) انظر صحيح مسلم (١٨١).

(٢) البخاري (٧٤٣٥).

وكقوله ﷺ: «إِنكمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُم كَمَا تَرَوْنَ هَذَا القَمَرَ»[1].....الحديث.

وقد أوردت كمًّا من الاستدلالات على ذلك في تفسير سورة القيامة.

ومن الدليل على ذلك أيضًا: قوله تعالى في شأن أهل الكفر: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فدلَّ ذلك على أن أهل الإيمان ليسوا بمحجوبين، والله أعلم.

وأعود فأقول، ماذا كان لما قال موسى عليه السلام: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾؟

أقول مجيبًا، لقد قال له ربه سبحانه: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

وحاصل معنى ذلك- والله أعلم-: أن موسى عليه السلام لما طلب من ربِّه عز وجل الرؤية ولم يُجب إلى هذا الطلب بل وخرَّ موسى صعقًا لما تجلي ربُّه للجبل ناداه ربُّه عز وجل ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ أي يا موسى إني قد فضلتك على الناس- وهم الناس الذين أُرسل إليهم- بأن جعلتك رسولًا من بينهم، وفضَّلتك عليهم بتكليمي لك فخذ ما آتيتك من هذه الفضائل واعمل بما أمرتك به من الأوامر وانتهِ عما نهيتك عنه، واحمد الله على هذه الفضائل التي فضَّلتك بها والشرائع التي بيَّنتها لك.

هذا وفي قوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ إرشاد إلى القناعة، ووجه ذلك:

أن الله عز وجل أمر موسى عليه السلام أن يقبل على ما آتاه الله إياه ولا يسأل ما ليس له (من الرؤية) وليقدم شكرًا لله عز وجل على ما تفضَّل به عليه، وعلى ما منَّ الله به عليه.

وها هنا أسئلة تطرح:

فمنها: كيف اصطفى الله موسى عليه السلام على الناس برسالاته وبكلامه، وقد

(١) البخاري (٧٤٣٤)، ومسلم (٦٣٣).

أرسل غيره من الرسل عليهم صلوات الله وسلامه؟

أجاب بعض العلماء على ذلك بما حاصله أن الله عَزَّوَجَلَّ اصطفاه على الناس الذين أُرسل إليهم.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَذْكُرُ تَعَالَى أَنَّهُ خَاطَبَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَنَّهُ اصْطَفَاهُ عَلَى عَالِمِي زَمَانِهِ بِرِسَالَاتِهِ وَبِكَلَامِهِ تَعَالَى وَلَا شَكَّ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ مِنَ الْأَوَّلِينَ والآخرين؛ ولهذا اختصه الله بأن جَعَلَهُ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، الَّتِي تَسْتَمِرُّ شَرِيعَتُهُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، وَأَتْبَاعُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَتْبَاعِ سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ كُلِّهِمْ، وَبَعْدَهُ فِي الشَّرَفِ وَالْفَضْلِ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ثُمَّ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ كَلِيمُ الرَّحْمَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قلت (مصطفى):

فيكون قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ناسٍ مخصوصين وهم الذين أُرسل إليهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإن الناس أحيانًا يأتي ذكرها يُراد بها ناسٌ مخصوصون، ليسوا الخلق أجمعين، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾، فالمقول لهم ناس وهم المؤمنون، والقائلون لهم ناس وهم المنافقون، والذين جمعوا لهم ناس، وهم الكفار، والله أعلم.

وسؤال آخر: هل هناك من كلَّمه الله عَزَّوَجَلَّ غير موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

نعم قد ورد ذلك، فمن ذلك تكليم الله عَزَّوَجَلَّ لآدم وحواء، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وكذا فقد كلَّم النبي ﷺ في رحلة المعراج عند فرض الصلوات.

وقد ورد في صحيح السنة أن الله عَزَّوَجَلَّ نادى أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ؟». فقال: «بَلَى وَلَكِنْ وعِزَّتِكَ لا غِنىَ لِي عَنْ بَرَكَتِكَ»[1].

---

(١) أخرج البخاري (٣٣٩١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «بينما أيوب يغتسل عريانًا خرَّ عليه رجلٌ من جرادٍ من ذهب فجعل يحثي في ثوبه فنادى ربُّه: يا أيوب ألم أكن =

وفي شأن النداء أيضًا: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾[1].

وهل يرد على ذلك أنه قد يكون بواسطة جبريل عليه السلام؟ فالله أعلم.

وسؤال ثالث: ورد أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنبِيَاءِ**»[2]، وورد أيضًا أنه سيد ولد آدم عليه السلام.

فكيف الجمع بين هذا، وبين قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾؟

= **أغنيتك عما ترى قال: بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك**».

(١) وقد يقال إن هذا عن طريق الملك، وسيأتي إن شاء الله بتفصيل.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤١٢)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري «بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ جَاءَ يَهُودِيٌّ، فَقَالَ: يَا أَبَا القَاسِمِ ضَرَبَ وَجْهِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِكَ، فَقَالَ: «مَنْ؟»، قَالَ: رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، قَالَ: «**ادْعُوهُ**»، فَقَالَ: «**أَضَرَبْتَهُ؟**»، قَالَ: سَمِعْتُهُ بِالسُّوقِ يَحْلِفُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، قُلْتُ: أَيْ خَبِيث، عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فَأَخَذَتْنِي غَضْبَةٌ ضَرَبْتُ وَجْهَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لاَ تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الأُولَى**».

وكذا عند البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «اسْتَبَّ رَجُلاَنِ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ اليَهُودِ، قَالَ المُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا عَلَى العَالَمِينَ، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى العَالَمِينَ، فَرَفَعَ المُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَلَطَمَ وَجْهَ اليَهُودِيِّ، فَذَهَبَ اليَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ، وَأَمْرِ المُسْلِمِ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ المُسْلِمَ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ**».

هذا، وقد قال الحافظ ابن كثير في تفسير الصعقة في حديث الرسول ﷺ: «**فإن الناس يصعقون**» قال: الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الصَّعْقَ يَكُونُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، يَحْصُلُ أَمْرٌ يُصْعَقُونَ مِنْهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِهِ. وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ إِذَا جَاءَ الرَّبُّ تبارك وتعالى لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَتَجَلَّى لِلْخَلَائِقِ الْمَلِكُ الدَّيَّانُ، كَمَا صَعِقَ مُوسَى مِنْ تَجَلِّي الرَّبِّ عزوجل وَلِهَذَا قَالَ، عليه السلام: «**فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ**».

فأقول، وبالله التوفيق: أجاب على ذلك بعض العلماء بوجوه من الأجوبة:

منها: أن الرسول ﷺ قال ذلك تواضعًا وتعليم أمته التواضع.

ومنها: أن الأنبياء في أصل النبوة سواء، ولكن التفاضل بينهم بما وراء ذلك من أعمال.

الثالث: أن النبي ﷺ قال ذلك قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم.

الرابع: أنه نهى أن يُفضَّل بينهم على وجه الغضبية والتعصب، أو على وجه القول بمجرد الرأي والتشهي.

هذا، وأعود إلى الآيات في ذكر موسى عليه السلام، إذ الله قال له: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

أي: خذ ما أعطيتك من الرسالة والتكليم والألواح والتوراة وكن من الحامدين على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ قد أتاه الله عز وجل التوراة والألواح والصحف، وقد قيل: إنها كلها مسمى لشيء واحد فالله أعلم، كما أوتي التكليم والرسالات وغير ذلك من الآيات، وقد ذُكرت قبل.

وما هذه الألواح؟ ومن أن شيء كانت؟ وما موضوعها؟ وما الأشياء التي كتبها الله فيها؟

وجوابه: ابتداءً لم أقف على خبر ثابتٍ عن رسول الله ﷺ في شأن هذه، وإنما غاية ما فيها من الوارد في كتاب الله عز وجل أنها ألواحٌ كتب الله فيها ما يحتاج إليه بنو إسرائيل من الأوامر والنواهي والشرائع والأحكام والتوحيد وسائر أمور الدين، وتفصيلات كل ذلك منَّ الله عز وجل بها على موسى عليه السلام، وأعطاه إياها.

هذا وقد قال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ كَتَبَ ﴿لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ قِيلَ: كَانَتِ الْأَلْوَاحُ مِنْ جَوْهَرٍ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ لَهُ فِيهَا مَوَاعِظَ

وَأَحْكَامًا مُفَصَّلَةً مُبَيِّنَةً لِلْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَلْوَاحُ مُشْتَمِلَةً عَلَى التَّوْرَاةِ الَّتِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾.

وَقِيلَ: الْأَلْوَاحُ أُعْطِيَهَا مُوسَى قَبْلَ التَّوْرَاةِ، فَاللهُ أَعْلَمُ. وَعَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ كَانَتْ كَالتَّعْوِيضِ لَهُ عَمَّا سَأَلَ مِنَ الرُّؤْيَةِ وَمُنِعَ مِنْهُ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

هذا، وقد قال غير الحافظ ابن كثير: إنها كانت من زُمُردة خضراء وقيل: من ياقوتةٍ حمراء، وقيل: من خشب وقيل: من زبرجد وأقوال كثيرةٌ فيها - فالله أعلم بالصواب.

وقوله تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: أقبل عليها بجدٍ واجتهاد ونشاط واعمل بأشد مما أمرت به قومك.

أما قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾.

فلأهل العلم في ذلك أقوال:

أحدها: أن يعملوا بما أمرهم الله به ويتركوا ما نهاهم الله عنه فالعمل بالمأمور به أحسن من العمل بالمنهي عنه.

الثاني: أن الأمر هنا أمر ندبٍ وإرشاد، وأيضًا فهناك حسنٌ وهناك أحسن، فمثلًا هناك قصاص وهناك عفو، والعفو أفضل من القصاص، وإن كان القصاص جائزًا.

وهناك صبر وهناك انتصارٌ من الظالم، والصبر - في الجملة - أفضل من الانتصار.

وهذا المعنى كالوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾، فالعدل القصاص والإحسان العفو.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ إن قيل: كأن فيها ما ليس

بحسن؟ فعنه جوابان:

أحدهما: أن المعنى: يأخذوا بحسنها، وكلها حَسَن، قاله قطرب، وقال ابن الأنباري: ناب «أحسن» عن «حسن» كما قال الفرزدق:

إِنَّ الَّـذِي سَـمَكَ الـسَّمَاءَ بَنـى لَنَـا بَيْتـًا دَعَائِمُـهُ أَعَـزُّ وأَطْـوَلُ

أي: عزيزة طويلة. وقال غيره: «الأحسن» ها هنا صلة، والمعنى أن يأخذوا بها.

والثاني: أن بعض ما فيها أحسن من بعض.

ثم في ذلك خمسة أقوال:

أحدها: أنهم أُمروا فيها بالخير ونُهوا عن الشر، فَفِعْلُ الخير هو الأحسن.

والثاني: أنها اشتملت على أشياء حسنة بعضها أحسن من بعض، كالقصاص والعفو والانتصار والصبر، فأُمِروا أن يأخذوا بالأحسن، ذكر القولين الزجاج.

فعلى هذا القول، يكون المعنى: أنهم يتبعون العزائم والفضائل، وعلى الذي قبله، يكون المعنى: أنهم يتبعون الموصوف بالحسن وهو الطاعة، ويجتنبون الموصوف بالقبح وهو المعصية.

والثالث: أحسنها: الفرائض والنوافل، وأدونها في الحسن: المباح.

والرابع: أن يكون للكلمة معنيان أو ثلاثة، فتصرف إلى الأشبه بالحق.

والخامس: أن أحسنها: الجمع بين الفرائض والنوافل.

أما قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ فللعماء فيه أقوال:

أحدها: أن دار الفاسقين هي جهنم.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره لموسى، إذ كتب في الألواح من كل شيء: خذها بجدّ في العمل بما فيها واجتهاد، واؤمر قومك يأخذوا بأحسن ما فيها، وانههم عن

تضييعها وتضييع العمل بما فيها والشرك بي، فإن من أشرك بي منهم ومن غيرهم، فإني سأريه في الآخرة عند مصيره إليّ، ﴿دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وهي نار الله التي أعدها لأعدائه.

وإنما قال: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، كما يقول القائل لمن يخاطبه: «سأريك غدًا إلامَ يصير إليه حال من خالف أمري!»، على وجه التهدُّد والوعيد لمن عصاهُ وخالف أمره.

القول الثاني: أن المراد بدار الفاسقين هي الشام وقيل هي مصر واختار ابن كثير الأول.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أَيْ: مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَأُعْطِيكُمْ إِيَّاهَا. وَقِيلَ: مَنَازِلُ قَوْمِ فِرْعَوْنَ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى، وَاللهُ أَعْلَمُ؛ لِأَنَّ هَذَا كَانَ بَعْدَ انْفِصَالِ مُوسَى وَقَوْمِهِ عَنْ بِلَادِ مِصْرَ، وَهُوَ خِطَابٌ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ دُخُولِهِمُ التِّيهَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

القول الثالث: أنها مساكن عادٍ وثمود التي كانوا يمرون عليها صباحًا ومساءً.

قال ابن الجوزي في «زاد المسير»:

قوله تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فيها أربعة أقوال : أحدها: أنها جهنم، قاله الحسن، ومجاهد. والثاني: أنها دار فرعون وقومه، وهي مصر، قاله عطية العوفي. والثالث: أنها منازل من هلك من الجبابرة والعمالقة، يريهم إياها عند دخولهم الشام، قاله قتادة. والرابع: أنها مصارع الفاسقين، قاله السدي. ومعنى الكلام: سأُرِيكم عاقبة من خالف أمري، وهذا تهديد للمخالف، وتحذير للموافق.

ثم يبين الله عَزَّوَجَلَّ عقوبة للمتكبرين بغير الحق ألا وهي أنه سبحانه سيصرفهم عن آياته جزاء كبرهم واستعلائهم فالذي ينصرف عن الحق يزيده الله انصرافًا

عنه، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾.

وكما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾.

وهنا قال تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾.

ومعنى الآية إجمالًا -والله أعلم-: أن الله عَزَّوَجَلَّ أخبر بأنه سيصرف الكفار المتكبرين في الأرض بغير الحق سيصرفهم عن فهم الآيات وتدبرها، فإذا قرؤوا القرآن أو استمعوه فلن يفهموا ولن يستفيدوا ولن يعتبروا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾.

وكذلك سيصرفهم عن تعقُّل الآيات الكونية وفهمها والاعتبار منها والاتعاظ، فليسوا كأولي الألباب الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله أخبر أنه سيصرف عن آياته، وهي أدلته وأعلامه على حقيقة ما أمر به عباده وفرض عليهم من طاعته في توحيده وعدله، وغير ذلك من فرائضه والسموات والأرض، وكل موجود من خلقه، فمن آياته، والقرآن أيضًا من آياته، وقد عم بالخبر أنه يصرف عن آياته المتكبرين في الأرض بغير الحق، وهم الذين حقَّت عليهم كلمة الله أنهم لا يؤمنون، فهم عن فهم جميع آياته والاعتبار والإدّكار بها مصروفون، لأنهم لو وفِّقوا لفهم بعض ذلك فهُدوا للاعتبار به، اتعظوا وأنابوا إلى الحق، وذلك غير كائن منهم؛ لأنه جلّ ثناؤه قال: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ﴾، فلا تبديل لكلمات الله.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يَقُولُ تَعَالَى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أَيْ: سَأَمْنَعُ فهم الحجج وَالْأَدِلَّةِ عَلَى عَظْمَتِي وَشَرِيعَتِي وَأَحْكَامِي قُلُوبَ الْمُتَكَبِّرِينَ

عَنْ طَاعَتِي، وَيَتَكَبَّرُونَ عَلَى النَّاسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، أَيْ: كَمَا اسْتَكْبَرُوا بِغَيْرِ حَقٍّ أَذَلَّهُمُ اللهُ بِالْجَهْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: لَا يَنَالُ الْعِلْمَ حَيِيٌّ وَلَا مُسْتَكْبِرٌ.

وَقَالَ آخَرُ: مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى ذُلِّ التَّعَلُّمِ سَاعَةً، بَقِيَ فِي ذُلِّ الْجَهْلِ أَبَدًا.

وقال الشافعي:

مَنْ لَم يَذُق مُرَّ التَّعَلُّم ساعَةً ... تَجَرَّعَ ذُلَّ الجَهْلِ طُولَ حَيَاتِهِ

أما قوله تعالى: ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ فالكبر بطر الحق وغمط الناس أي أنهم يرفضون الحق وينكرونه ويجحدونه ويزدرون الناس ويحتقرونهم ويتعالون عليهم ويظنون أنهم أفضل الخلق ويتعالون على الأوامر فيرفضون أمر الله عَزَّوَجَلَّ ويُقبلون على ما نهى عنه.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ الآيات.

فمعناه -والله تعالى أعلم-: أن الله عَزَّوَجَلَّ صرف المتكبِّرين في الأرض عن الدلالات على وحدانيته، وعن فهم كتابه، فمن ثَمَّ لم يفهموا القرآن ولم تُجدِ معهم ولم تؤثِّر فيهم الآيات فكلما جاءتهم آيةٌ ازدادوا ضلالًا إلى ضلالهم وفجورًا إلى فجورهم، فكانوا كلما عُرض عليهم طريق الحق والصواب، ذلكم الطريق الموصل إلى جنة الله ومرضاته رفضوا أن يسلكوه، وإذا عُرض عليهم طريق الشر والفساد الموصل إلى جهنم -والعياذ بالله- سلكوه واختاروه، وذلك منهم؛ لكونهم كذبوا بآيات الله وأنكروها ولم يعتبروا بها ولم يتعظوا فزُيِّن لهم الباطل وأعماهم الله عن الحق.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وإن يرَ هؤلاء الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق

و«تكبرهم فيها بغير الحق»، تجبرهم فيها، واستكبارهم عن الإيمان بالله ورسوله، والإذعان لأمره ونهيه، وهم لله عبيدٌ يغذوهم بنعمته، ويريح عليهم رزقه بكرة وعشيًّا، ﴿كُلَّ ءَايَةٍ﴾، يقول: كل حجة لله على وحدانيته وربوبيته، وكل دلالة على أنه لا تنبغي العبادة إلا له خالصة دون غيره.﴿لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾، يقول: لا يصدقوا بتلك الآية أنها دالة على ما هي فيه حجة، ولكنهم يقولون: «هي سحر وكذب»﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، يقول: وإن ير هؤلاء الذين وصف صفتهم طريق الهدى والسداد الذي إن سلكوه نجوا من الهلكة والعطب، وصاروا إلى نعيم الأبد، لا يسلكوه ولا يتخذوه لأنفسهم طريقًا، جهلًا منهم وحيرة ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ﴾، يقول: وإن يروا طريق الهلاك الذي إن سلكوه ضلّوا وهلكوا- وقد بينا معنى ﴿ٱلْغَيِّ﴾ فيما مضى قبل، بما أغنى عن إعادته- ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، يقول: يسلكوه ويجعلوه لأنفسهم طريقًا، لصرف الله إياهم عن آياته، وطبعه على قلوبهم، فهم لا يفلحون ولا ينجحون ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾، يقول تعالى ذكره: صرفناهم عن آياتنا أن يعقلوها ويفهموها فيعتبروا بها ويذكروا فينيبوا، عقوبةً منا لهم على تكذيبهم بآياتنا ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾، يقول: وكانوا عن آياتنا وأدلتنا الشاهدة على حقيقة ما أمرناهم به ونهيناهم عنه ﴿غَٰفِلِينَ﴾، لا يتفكرون فيها، لاهين عنها، لا يعتبرون بها، فحق عليهم حينئذٍ قول ربنا فعَطِبوا.

قلت (مصطفى): والمقصود بيان أن أهل الباطل لا ينتفعون بالآيات، بل تزيدهم ضلالًا دلّل على ذلك.

من الأدلة على ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ

إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

أما قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

فمعناه -والله تعالى أعلم-: والذين كذبوا بالقرآن وبالدلالات على وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ وقدرته وصدق رسله وكذا كذبوا بالبعث والحساب والثواب والعقاب وماتوا على ذلك أحبط الله عَزَّوَجَلَّ أعمالهم، فإنهم يجازون بما قدموا من عمل، وكما يدين الشخص يدان.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: وهؤلاء المستكبرون في الأرض بغير الحق، وكلّ مكذِّبٍ حججَ الله ورسله وآياته، وجاحدٍ أنه يوم القيامة مبعوث بعد مماته، ومنكرٍ لقاء الله في آخرته، ذهبت أعمالهم فبطلت، وحصلت لهم أوزارها فثبتت؛ لأنهم عملوا لغير الله، وأتعبوا أنفسهم في غير ما يرضى الله، فصارت أعمالهم عليهم وبَالًا. يقول الله جل ثناؤه: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾، يقول: هل يثابون إلا ثواب ما كانوا يعملون؟ فصار ثواب أعمالهم الخلودَ في نار أحاط بهم سرادقها، إذ كانت أعمالهم في طاعة الشيطان، دون طاعة الرحمن، نعوذ بالله من غضبه.

(٤٥٢) أحمر أسود

عبادة بني إسرائيل للعجل

قصة السامري

(٤٥٤) أحمر أسود

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨-١٥٤].

معاني مفردات الآيات المباركات:

الكلمة	معناها
﴿حُلِيِّهِمْ﴾	الذهب الذي يتحلون به ويتزينون به.
﴿جَسَدًا﴾	جسمًا- مُجسمًا.
﴿خُوَارٌ﴾	صوت (صوت العجل).
﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾	لا يرشدهم إلى الخير ولا يدلهم عليه ولا يبين لهم طريق الشرك.
﴿سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾	ندموا، وهي كلمة تُقال عن كل نادم.
﴿أَسِفًا﴾	شديد الغضب- الأسف: أشد الغضب- حزينًا.
﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ﴾	بئس الصنيع الذي صنعتموه بعد مفارقتي لكم، وبئس العمل الذي عملتموه.

الكلمة	معناها
﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾	أسبقتم أمر ربكم- أستعجلتم مجيئه إليكم.
﴿وَٱسْتَضْعَفُونِى﴾	رأوني ضعيفًا فاستذلوني ولم يُبالوا بقولي وتركوا طاعتي واتباع أمري.
﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾	تجعل الأعداء مسرورين بالشر الذي يحدث لي فالشماتة: السرور بما يصيب الشخص من المصائب في الدنيا والدين.
﴿وَذِلَّةٌ﴾	هوان- إهانةٌ.
﴿ٱلْمُفْتَرِينَ﴾	الكاذبين على الله.
﴿سَكَتَ﴾	سكن- انكف- ذهب.
﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾	فيما كُتب فيها- فيما نُسخ فيها (أي: كتب).
﴿هُدًى﴾	بيان الحق.
﴿يَرْهَبُونَ﴾	يخافون الله ويخشون عقابه.

المعنى الإجمالي للآيات المباركات:

يقص الله علينا ما كان من بني إسرائيل بعد ذهاب نبيهم موسى عليه السلام لتكليم ربه وتلقي الشرائع والوحي لهداية هؤلاء القوم فيقول تعالى ذِكره: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾.

والمعنى -والله تعالى أعلم-: أن قوم موسى لما خرج من عندهم نبيهم كليم الله ورسول الله موسى عليه السلام لمناجاة ربِّه عز وجل وأخذ شرائع الدين، فلما تركهم موسى وخرج لهذا الغرض صنع السامري لهم عجلًا من الذهب الذي كان عند بني إسرائيل للفراعنة والقبط، فقد كانوا حُملوا أمانات من هؤلاء وأولئك، فلما أغرق الله الفراعنة والقبط، ورأى الإسرائيليون أن هذه الأمانات لا تحل لهم ولا

يحل لهم الاستمتاع بها قذفوها وألقوا بها كما ذكر ذلك ربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقد قال تعالى في شأنهم لما قال موسى عليه السلام: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ فحينئذٍ، ولما ألقوا ما معهم من حُليٍّ أخذه السامري فصنع منه عجلًا جسدًا ثم إن السامري- على ما ذكره كثيرٌ من المفسرين- كان قد رأى جبريل علي فرسه- بتمكين الله له من هذه الرؤية- فأخذ قبضة من التراب الذي مرَّ عليه جبريل بفرسه- كما قال عن نفسه: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٩٦]، فألقى السامري هذه القبضة من التراب على العجل فسُمِعَ له صوت كصوت البقرة وهو الخوار فقال لقومه: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ أي: ولكن موسى نسي أن ربَّه هذا العجل فخرج وترككم.

فحينئذٍ عبد قوم موسى العجل كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ الآية.

❁ أما قوله: ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي: له صوت.

❁ أما هل تحول العجل الذهبي- بعد أن ألقى السامري القبضة عليه في قوله: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾- إلى لحم ودم وعجل حقيقي أم كان على حاله من ذَهبٍ ولكن سمع له صوت؟ الله أعلم بكل ذلك.

❁ **والحاصل**: أن قوم موسى، وهم بنو إسرائيل اتخذوا العجل الذي صنعه لهم السامري من هذا الحلي إلهًا يعبدونه فهذا قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾.

ثم إن الله عَزَّوَجَلَّ ينقم عليهم صنيعهم هذا فيقول سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: ألم ير هؤلاء الإسرائيليون أن هذا العجل لا يرشدهم إلى الخير ولا ينهاهم عن الشر ولا يدلهم على الطريق المستقيم الذي

يقربهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإلى مرضاته؟!!كلا فلم يعقل الإسرائيليون حين اتخذوا العجل إلهًا، بل عبدوه وهم ظالمون لأنفسهم قد بخسوها حقها وأردوها سوء المنازل بعبادتهم العجل.

هذا، وقد قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في شأن ذلك:

يقول تعالى ذكره: واتخذ بنو إسرائيل قومُ موسى، من بعد ما فارقهم موسى ماضيًا إلى ربه لمناجاته، ووفاءً للوعد الذي كان ربه وعده ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا﴾، وهو ولد البقرة، فعبدوه.

ثم بين تعالى ذكره ما ذلك العجل فقال: ﴿جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾ و«الخوار»: صوت البقر، يخبر جل ذكره عنهم أنهم ضلوا بما لا يضل بمثله أهل العقل. وذلك أن الرب جلّ جلاله الذي له ملك السموات والأرض، ومدبر ذلك، لا يجوز أن يكون جسدًا له خوار، لا يكلم أحدًا ولا يرشد إلى خير. وقال هؤلاء الذين قص الله قصَصهم لذلك: «هذا إلهنا وإله موسى»، فعكفوا عليه يعبدونه، جهلًا منهم، وذهابًا عن الله وضلالا.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾، يقول: ألم ير الذين عكفوا على العجل الذي اتخذوه من حليهم يعبدونه، أن العجل لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلًا؟ يقول: ولا يرشدهم إلى طريق، وليس ذلك من صفة ربهم الذي له العبادة حقًّا، بل صفته أنه يكلم أنبياءه ورسله، ويرشد خلقه إلى سبيل الخير، وينهاهم عن سبيل المهالك والردى. يقول الله جل ثناؤه:﴿اتَّخَذُوهُ﴾، أي: اتخذوا العجل إلهًا، وكانوا باتخاذهم إياه ربًّا معبودًا ظالمين لأنفسهم، لعبادتهم غير من له العبادة، وإضافتهم الألوهة إلى غير الذي له الألوهة.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي عِبَادَتِهِمُ الْعِجْلَ، الَّذِي

اتَّخَذَهُ لَهُمُ السَّامِرِيُّ مِنْ حُلِيِّ الْقِبْطِ، الَّذِي كَانُوا اسْتَعَارُوهُ مِنْهُمْ، فَشَكَّلَ لَهُمْ مِنْهُ عِجْلًا ثُمَّ أَلْقَى فِيهِ الْقَبْضَةَ مِنَ التُّرَابِ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ عليه السلام فَصَارَ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ، وَ«الْخُوَارُ» صَوْتُ الْبَقَرِ. وَكَانَ هَذَا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَهَابِ مُوسَى عليه السلام لِمِيقَاتِ رَبِّهِ تَعَالَى، وَأَعْلَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِذَلِكَ وَهُوَ عَلَى الطُّورِ، حَيْثُ يَقُولُ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾.

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي هَذَا الْعِجْلِ: هَلْ صَارَ لَحْمًا وَدَمًا لَهُ خُوَارٌ؟ أَوِ اسْتَمَرَّ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ ذَهَبٍ، إِلَّا أَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ الْهَوَاءُ فَيُصَوِّتُ كَالْبَقَرِ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، وَاللهُ أَعْلَمُ. وَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمَّا صَوَّتَ لَهُمُ الْعِجْلُ رَقَصُوا حَوْلَهُ وَافْتَتَنُوا بِهِ قَالُوا: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾

وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ يُنْكِرُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ فِي ضَلَالِهِمْ بِالْعِجْلِ، وذُهُولهم عَنْ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكِهِ، أَنْ عَبَدُوا مَعَهُ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَار لَا يُكَلِّمُهُمْ، وَلَا يُرْشِدُهُمْ إِلَى خَيْرٍ. وَلَكِنْ غَطَّى عَلَى أعيُن بَصَائِرِهِمْ عَمَى الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ.

❁ هذا، وقد أورد القرطبي رحمه الله كلامًا في هذا الصدد أيضًا بعضه يشهد له التنزيل وبعضه يفتقر إلى الدليل فقال رحمه الله:

وَرُوِيَ فِي قَصَصِ الْعِجْلِ: أَنَّ السَّامِرِيَّ، وَاسْمُهُ مُوسَى بْنُ ظَفَرَ، يُنْسَبُ إِلَى قَرْيَةٍ تُدْعَى سَامِرَةَ[1].

وُلِدَ عَامَ قَتْلِ الْأَبْنَاءِ، وَأَخْفَتْهُ أُمُّهُ فِي كَهْفِ جَبَلٍ فَغَذَّاهُ جِبْرِيلُ[2] فَعَرَفَهُ لِذَلِكَ، فَأَخَذَ حِينَ عَبَرَ الْبَحْرَ عَلَى فَرَسٍ وَدِيقٍ لِيَتَقَدَّمَ فِرْعَوْنَ فِي الْبَحْرِ، قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ حَافِرِ الْفَرَسِ. وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾.

[طه:٩٦]

(١، ٢) دلَّ دليل على ذلك.

وَكَانَ مُوسَى وَعَدَ قَوْمَهُ ثَلَاثِينَ يَوْمًا، فَلَمَّا أَبْطَأَ فِي الْعَشْرِ الزَّائِدةِ وَمَضَتْ ثَلَاثُونَ لَيْلَةً قَالَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَانَ مُطَاعًا فِيهِمْ: إِنَّ مَعَكُمْ حُلِيًّا مِنْ حُلِيِّ آلِ فِرْعَوْنَ، وَكَانَ لَهُمْ عِيدٌ يَتَزَيَّنُونَ فِيهِ وَيَسْتَعِيرُونَ مِنَ الْقِبْطِ الْحُلِيَّ فَاسْتَعَارُوا لِذَلِكَ الْيَوْمِ، فَلَمَّا أَخْرَجَهُمُ اللهُ مِنْ مِصْرَ وَغَرِقَ الْقِبْطُ بَقِيَ ذَلِكَ الْحُلِيُّ فِي أَيْدِيهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ السَّامِرِيُّ: إِنَّهُ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، فَهَاتُوا مَا عِنْدَكُمْ فَنُحَرِّقُهُ.

وَقِيلَ: هَذَا الْحُلِيُّ مَا أَخَذَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ بَعْدَ الْغَرَقِ، وَأَنَّ هَارُونَ قَالَ لَهُمْ: إِنَّ الْحُلِيَّ غَنِيمَةٌ، وَهِيَ لَا تَحِلُّ لَكُمْ، فَجَمَعَهَا فِي حُفْرَةٍ حَفَرَهَا فَأَخَذَهَا السَّامِرِيُّ.

وَقِيلَ: اسْتَعَارُوا الْحُلِيَّ لَيْلَةَ أَرَادُوا الْخُرُوجَ مِنْ مِصْرَ، وَأَوْهَمُوا الْقِبْطَ أَنَّ لهم عرسًا أو مجتمعًا، وَكَانَ السَّامِرِيُّ سَمِعَ قَوْلَهُمْ ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾.

[الأعراف: ١٣٨]

وَكَانَتْ تِلْكَ الْآلِهَةُ عَلَى مِثَالِ الْبَقَرِ، فَصَاغَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا، أَيْ: مصمتًا، غير أنهم كانوا يسمعون منه خوار.

وَقِيلَ: قَلَبَهُ اللهُ لَحْمًا وَدَمًا.

وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمَّا أَلْقَى تِلْكَ الْقَبْضَةَ مِنَ التُّرَابِ فِي النَّارِ عَلَى الْحُلِيِّ صَارَ عِجْلًا لَهُ خُوَارٌ، فَخَارَ خَوْرَةً وَاحِدَةً وَلَمْ يُثَنِّ ثُمَّ قَالَ لِلْقَوْمِ: ﴿هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨].

يَقُولُ: نسيه هاهنا وَذَهَبَ يَطْلُبُهُ فَضَلَّ عَنْهُ، فَتَعَالَوْا نَعْبُدُ هَذَا الْعِجْلَ.

فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى وَهُوَ يُنَاجِيهِ: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.

توبة بني إسرائيل من عبادة العجل وندمهم

قلت (مصطفى): أما قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾.

فمعناه - والله تعالى أعلم-: أن قوم موسى لما عبدوا العجل ورجع إليهم نبي الله موسى ﷺ وبيَّن لهم خطأ ما هم فيه وطريق الضلال الذي سلكوه وصاروا فيه ندموا ندمًا شديدًا على ما صنعوه من عبادة العجل، والنادم يُعبر عنه بأنه قد سُقط في يده، فلما تبين لهم أنهم قد ضلوا بعبادتهم العجل سألوا الله عَزَّوَجَلَّ الرحمة والمغفرة بقولهم: ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ ﴾: ولما ندم الذين عبدوا العجل الذي وصف جل ثناؤه صفته، عند رجوع موسى إليهم، واستسلموا لموسى وحكمه فيهم.

وكذلك تقول العرب لكل نادم على أمر فات منه أو سلف، وعاجز عن شيء: «قد سُقِط في يديه» و«أسقط»، لغتان فصيحتان، وأصله من الاستئسار، وذلك أن يضرب الرجل الرجل أو يصرعه، فيرمي به من يديه إلى الأرض ليأسره، فيكتفه. فالمرميّ به مسقوط في يدي الساقط به. فقيل لكل عاجز عن شيء، وضارع لعجزه، متندِّم على ما قاله: «سقط في يديه» و«أسقط».

وعنى بقوله: ﴿وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ ﴾، ورأوا أنهم قد جاروا عن قصد السبيل، وذهبوا عن دين الله، وكفروا بربهم، قالوا تائبين إلى الله منيبين إليه من كفرهم به: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ﴾ أَيْ: نَدِمُوا عَلَى مَا فَعَلُوا، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا ﴾ وَقَرَأَ بَعْضُهُمْ: (لَئِنْ لَمْ تَرْحَمْنَا) بِالتَّاءِ الْمُثَنَّاةِ مِنْ فَوْقُ، «رَبَّنَا» مُنَادَى، «وتَغْفِر لَنَا»، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ أَيْ: مِنَ الْهَالِكِينَ وَهَذَا اعْتِرَافٌ مِنْهُمْ بِذَنْبِهِمْ وَالْتِجَاءٌ إِلَى اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

قلت (مصطفى): ولمزيد من الإيضاح لقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾.

فأقول المعنى - والله أعلم-: لئن لم يتفضل علينا ربنا ويرحمنا برحمته ويتجاوز عن سيئاتنا وعن جرمنا الذي اجترمناه بعبادتنا العجل واتخاذنا له إلهًا لنكونن من الهالكين الذين خسروا أنفسهم فأوردوها اللظى والجحيم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: ومعنى قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ لئن لم يتعطف علينا ربنا بالتوبة برحمته ويتغمد بها ذنوبنا لنكونن من الهالكين الذين حبطت أعمالهم.

قلت: هذا، وهناك قراءتان في قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ﴾ إحداهما التي في المصحف الذي بين أيدينا بالياء في قوله: ﴿يَرْحَمْنَا﴾، وبالضم في قوله: ﴿رَبُّنَا ﴾.

والأخرى قراءة أهل الكوفة بالتاء، وبالنصب: **(لئن لم ترحمنا ربَّنا)**.

قال القرطبي:

وَفِيهِ مَعْنَى الِاسْتِغَاثَةِ وَالتَّضَرُّعِ وَالِابْتِهَالِ فِي السُّؤَالِ وَالدُّعَاءِ. «رَبَّنَا» بِالنَّصْبِ عَلَى حَذْفِ النِّدَاءِ. وَهُوَ أَيْضًا أَبْلَغُ فِي الدُّعَاءِ وَالْخُضُوعِ. فَقِرَاءَتُهُمَا أبلغ في الاستكانة والتضرع، فهي أولى. كذا قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ.

غضب موسى عليه السلام من قومه لما عبدوا العجل وعقابه الشديد لهم

أعود فأقول: فماذا كان من موسى عليه السلام، وقد أخبره ربُّه عز وجل أن قومه عبدوا العجل:

لقد رجع إليهم عليه السلام غضبان غضبًا شديدًا وعاتبهم عتابًا شديدًا.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾.

المعنى –والله تعالى أعلم– ولما رجع موسى عليه السلام من سفره الذي فيه إذ كان قد ذهب لتكليم الله عز وجل ومناجاته فذهب وتلقى الألواح وفي نسختها هدى ورحمة وأوامر ونواهٍ وإرشادات وأحكام لبني إسرائيل، وكان موسى عليه السلام قد أخبره ربُّه عز وجل أن قومه عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري فرجع موسى إلى قومه غضبان غضبًا شديدًا، وحزينًا بسبب ذلك، والله أعلم.

أما قوله: ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ أي: بئس العمل والصنيع الذي صنعتموه بعد فراقي لكم.

قال الطبري رحمه الله:

يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، رَجَعَ غَضْبَانَ أَسِفًا؛ لِأَنَّ اللهَ كَانَ قَدْ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَدْ فَتَنَ قَوْمَهُ، وَأَنَّ السَّامِرِيَّ قَدْ أَضَلَّهُمْ، فَكَانَ رُجُوعُهُ غَضْبَانَ أَسِفًا لِذَلِكَ. وَالْأَسَفُ: شِدَّةُ الْغَضَبِ وَالتَّغَيُّظُ بِهِ عَلَى مَنْ أَغْضَبَهُ.

وقال أيضًا: وقوله: ﴿قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾، يقول: بئس الفعل فعلتم بعد فراقي إياكم وأوليتموني فيمن خلفت ورائي من قومي فيكم، وديني الذي أمركم به ربكم. يقال منه: «خلفه بخير»، و«خلفه بشر»، إذا أولاه في أهله أو قومه ومن كان منه بسبيل من بعد شخوصه عنهم، خيرًا أو شرًّا.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله:

يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مُوسَى عليه السلام رَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ مِنْ مُنَاجَاةِ رَبِّهِ تَعَالَى وَهُوَ

غَضْبَانُ أَسِفٌ.

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ «الْأَسَفُ»: أَشَدُّ الْغَضَبِ.

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ﴾ يَقُولُ: بِئْسَ مَا صَنَعْتُمْ فِي عِبَادَتِكُمُ الْعِجْلَ بَعْدَ أَنْ ذَهَبْتُ وَتَرَكْتُكُمْ.

أما قول موسى عليه السلام: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾.

فقد قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في معناه:

وقوله: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يقول: استعجلتم مجيئي إليكم وهو مقدرٌ من الله تعالى.

أما الطبري رحمه الله فقال: أسبقتم أمر ربكم في نفوسكم وذهبتم عنه.

قلت (مصطفى): وأقول موضحًا ما ذكره أهل العلم والفضل: إن المعنى لما تأخرت عنكم بادرتم باتباع أوامر غير أوامر الله عز وجل وقدمتموها على أوامر الله عز وجل التي أتيتكم بها في الألواح فاتبعتم أوامر السامري الزائغ الذي أضلكم وفتنكم؟!! والله أعلم.

هذا، وقد استمر غضب موسى عليه السلام، وغضب غضبًا شديدًا على قومه، غضبًا لله عز وجل ولكون حرمات الله قد انتهكت، ووصل به الغضب عليه السلام إلى حدٍّ كبير، إلى أن ألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه ألقى موسى الألواح التي فيها هدى ونور.

ألقى الألواح التي فيها موعظةٌ وتفصيلٌ لكلِّ شيء ألقاها غاضبًا على قومه ومن قومه وتضايقًا منهم.

فكأن المعنى قد كلمني ربي عز وجل وأعطاني الألواح فيها هدايةٌ لكم وإرشادٌ، وفيها الأوامر والنواهي، وفيها الحِكَمُ والمواعظ وفيها ما به ترحمون إن أنتم اتبعتموه، فإذا بكم تستبطئون رجوعي وتعبدون العجل، فغضب موسى منهم من أجل ذلك أشد الغضب وألقى الألواح.

هذا، وقد ورد في هذا المقام حديث عن رسول الله ﷺ فيه: «يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى لَيْسَ الْمُعَايِنُ كَالْمُخْبَرِ أَخْبَرَهُ رَبُّهُ أَنَّ قَوْمَهُ فُتِنُوا بَعْدَهُ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا رَآهُمْ وَعَايَنَهُمْ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ»[1] وهو حديث صحيح الإسناد.

ومعنى الحديث أن الأخبار ليست كرؤية العين فالشخص قد يُعظِّم أمرًا قد حدث بناءً على ما وصله من الأخبار، لكن إذا كان قد رأى الحدث بعينه استبشع هذا الحدث واستنكره استنكارًا أشد وأشد من حاله عند سماع الخبر.

إلقاء موسى عليه السلام الألواح

وأعود قائلًا: إن موسى عليه السلام، ومع شدة الغضب وإلقاء الألواح فعل أمرًا آخر، أمرًا شديدًا أيضًا أخذ برأس أخيه يجرُّه إليه!!!

موسى عليه السلام يأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه

أخذ برأس أخيه النبي الكريم هارون عليه السلام يجرُّه إليه!!! فعل موسى ذلك غضبًا لله، ظنًّا منه أن هارون عليه السلام قصَّر، ولكن ما قصَّر هارون عليه السلام ولكن هكذا ظن موسى عليه السلام.

وحاصل المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه غضبان غضبًا شديدًا، حزينًا كذلك لكونهم عبدوا العجل واتخذوه إلهًا حزن من أخيه هارون عليه السلام ووجد في نفسه عليه ظنًّا منه أنه قصَّر في نصحهم وتذكيرهم ونهيهم، كما قال: ﴿يَنَهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ فحينئذٍ أقبل على هارون عليه السلام فأمسكه من لحيته ورأسه يجره إليه، كما في الآية الكريمة: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ﴾، وكما ها هنا: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾.

---

(١) أخرجه ابن حبان (بذل الإحسان ١٤/ ٦٢١٤) والحاكم (٢/ ٣٨٠) وكذا أحمد (١/ ٢١٥ و٢٧١) وغيرهم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وأما قوله: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾، فإن ذلك من فعل نبي الله ﷺ كان لموجدته على أخيه هارون في تركه اتباعه، وإقامته مع بني إسرائيل في الموضع الذي تركهم فيه، كما قال جل ثناؤه مخبرًا عن قيل موسى عليه السلام له: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٢، ٩٣]، حين أخبره هارون بعذره فقبل عذره، وذلك قيله لموسى: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: ٩٤]، وقال: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ الآية.

هذا، وقد أورد بعض أهل العلم هاهنا أقوالًا في أخذ موسى عليه السلام برأس أخيه يجرُّه إليه لا أرى لذكرها هنا وجهًا ولا أراها تتمشى مع السياق الكريم، فلذا أعرضت عن ذكرها والله أعلم.

أعود فأقول: وماذا كان من هارون عليه السلام لما أخذ أخوه موسى عليه السلام برأسه وعاتبه عتابًا شديدًا!!

لقد استدر هارون عليه السلام عطف أخيه موسى وألان الخطاب، ولم يقابل الغضب الشديد بغضب مثله بل تحمل وصبر عليه السلام، فقال لأخيه موسى عليه السلام مستعطفًا: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذا استعطاف من نبي الله هارون عليه السلام وبيانٌ لعذره أمام أخيه نبي الله وكليمه موسى عليه السلام فقال مستعطفًا مُذكرًا بالرحم التي تربطهما وبالأخوة لأمٍ التي أقرب في الاسترحام والاستعطاف: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾.

أما لماذا قال ابن أم ولم يقل ابن أبي؟

قال العلماء: إن ذلك أشد استدرارًا للعطف والرحمة - والله أعلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: وقيل: إن هارون إنما قال لموسى عليه السلام: (يا ابن أم)، ولم يقل (يا ابن أبي) وهما لأب واحدٍ وأم واحدة استعطافًا له على نفسه برحم الأم.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وإنما قال: (ابن أم) لتكون أرأف وأنجع عنده، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه.

وقال القرطبي: ﴿قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ﴾ وكان ابن أمه وأبيه، ولكنها كلمة لينٍ وعطفٍ.

هارون عليه السلام ليس له ذنب وقد أدى ما عليه

أما قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي﴾ فمعناه: رأوني ضعيفًا فاستذلوني ولم يبالوا بقولي، بل ﴿وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي﴾ لما أصررت على تذكيرهم ونهيهم، ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ فلا تجعل أعدائي وأعداءك مسرورين بما يحدث لي من أذى من قِبَلك إن أنت آذيتني، ﴿وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولا تأخذني بجريرة هؤلاء فتعاقبني كما يُعاقبون فأنا لم أعبد العجل ولم أقرهم بحالٍ من الأحوال على عبادته، والله أعلم.

وماذا كان من موسى عليه السلام لما ذكَّره هارون عليه السلام وأبدى له عذره فيما حدث؟!

دعاء موسى عليه السلام لنفسه ولأخيه بالمغفرة

لقد فاء موسى عليه السلام ورجع عما حدث منه لأخيه ودعا لنفسه ولأخيه.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

هذا دعاءٌ وسؤال من موسى عليه السلام لربِّه عَزَّوَجَلَّ أن يغفر له ولأخيه وأن يدخلهما برحمته مع عباده المرحومين.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: قال موسى، لما تبين له عذر أخيه، وعلم أنه لم يفرط في الواجب الذي كان عليه من أمر الله، في ارتكاب ما فعله الجهلة من عبدة العجل: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾، مستغفرًا من فعله بأخيه، ولأخيه من سالفٍ سلف له بينه وبين الله: تغمد ذنوبنا بستر منك تسترها به ﴿وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ﴾، يقول:

وارحمنا برحمتك الواسعة عبادك المؤمنين، فإنك أنت أرحم بعبادك من كل من رحم شيئًا.

وهنا قد يُطرح سؤال حاصله: هل كان هارون عليه السلام أذنب حتى قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾؟

وجوابه:-والله أعلم-أن ذلك تواضعًا من موسى عليه السلام لربِّه عز وجل، وهكذا شأن المتقين. وقد يحتمل أيضًا أنه سأل المغفرة لما عساه أن يكون قد صدر من قصور في النصح والتذكير والإنكار على بني إسرائيل، ولكنه أبعد من الأولى. وأيضًا قد يحتمل أن يكون سأل عموم مغفرة الذنوب له ولأخيه هارون عليهما السلام. والله أعلم.

ثم إن الله عز وجل توعَّد الذين اتخذوا العجل إلهًا فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾.

هذا إخبارٌ من الله عز وجل مصاحب بالتهديد لمن عبدوا العجل، ومن سار على نهجهم وسلك طريقهم فيقول تعالى ما معناه: إن الذين اتخذوا العجل إلهًا يعبدونه من دون الله ﴿سَيَنَالُهُمْ﴾ من جراء هذا الذنب الذي أذنبوا والجرم الذي ارتكبوا والشرك والكفر الذي وقعوا فيه ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ عقوبة على صنيعهم هذا ﴿وَذِلَّةٌ﴾ وذلٌّ وهوان: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قبل الآخرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ وبمثل هذا الجزاء وتلك العقوبة نجزي، نعاقب كل من افترى وكذب على الله وعبد مع الله إلهًا آخر.

وبمزيدٍ من الإيضاح أقول، وبالله التوفيق:

قال بعض أهل العلم: المراد بالغضب ها هنا العقوبة، فلم تقبل توبتهم بمجرد الاستغفار، بل أُمروا أن يقتل بعضهم بعضًا كما قال تعالى: ﴿فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾، وأما المراد بالذلة فالهوان الذي لحقهم من جراء فعلهم، وما نالهم من قتل بعضهم بعضًا، وما

وسموا به بعد ذلك من غيرهم.

وقال آخرون: إنها الجزية التي فرضت عليهم.

كذا قال بعض أهل العلم، وثمَّ أقوالٌ أُخر والله أعلم.

و قولـه تعـالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾ المـراد، والله أعلـم، أن كـلَّ مفـترٍ يجازيه الله عَزَّوَجَلَّ بالغضب والذِّلَّة، كل مفترٍ يُذله الله ويهينه ويعاقبه.

قال أبو قلابة[1]: هو جزاء كلِّ مفترٍ يكون إلى يوم القيامة أن يُذله الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد قال كثيرٌ من أهل العلم عند تفسير هذه الآية: إن كـلَّ مبتـدعٍ تعلـوه الذلـة وتصاحبه، فكل مبتدعٍ ذليل.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ويعني بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلۡمُفۡتَرِينَ﴾، وكما جَزيت هؤلاء الـذين اتخـذوا العجـل إلهًـا، مـن إحـلال الغـضب بهـم، والإذلال في الحيـاة الـدنيا عـلى كفـرهم ربّهم، ورِدَّتهم عن دينهم بعد إيمانهم بالله، كذلك نجزي كل من افـترى عـلى الله، فكـذب عليـه، وأقـر بألوهيـة غيـره، وعبـد شـيئًا سـواه مـن الأوثـان، بعـد إقـراره بوحدانية الله، وبعد إيمانه به وبأنبيائه ورسـله وقِيـلَ ذلـك، إذا لـم يتـب مـن كفـره قبل قتله.

هذا، ويفتح الله عَزَّوَجَلَّ أبواب التوبة أمام التائبين فيقـول تعـالى ذِكـره: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

والمعنـى -والله تعـالى أعلـم-: والـذين ارتكبـوا المحرمـات مـن المعاصـي والمآثم وغيـر ذلـك ممـا يسوء صـاحبه وتـسوؤه عقوبتـه مـن شـك وكفـر وفـسق وظلم، ثم رجعوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ وندموا عـلى مـا صـنعوا وأخلـصوا في تـوبتهم فـإن الله عَزَّوَجَلَّ قابلٌ لتوبتهم غافرٌ لذنوبهم وساترٌ عليهم صنيعهم.

---

(١) أخرج ذلك الطبري (١٥١٥٨) بسندٍ صحيح عنه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهذا خبر من الله تعالى ذكره أنه قابلٌ من كل تائب إليه من ذنب أتاه، صغيرةً كانت معصيته أو كبيرةً، كفرًا كانت أو غير كفر، كما قَبِلَ من عَبَدة العجل توبتهم بعد كفرهم به بعبادتهم العجل وارتدادهم عن دينهم.

يقول جل ثناؤه: والذين عملوا الأعمال السيئة، ثم رجعوا إلى طلب رضى الله بإنابتهم إلى ما يحب مما يكره، وإلى ما يرضى مما يسخط، من بعد سيئ أعمالهم، وصدَّقوا بأن الله قابل توبة المذنبين، وتائبٌ على المنيبين، بإخلاص قلوبهم ويقين منهم بذلك ﴿لَغَفُورٌ﴾، لهم، يقول: لساتر عليهم أعمالهم السيئة، وغير فاضحهم بها ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، وبكل من كان مثلهم من التائبين.

هذا، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾.

ومعناه –والله تعالى أعلم– ولما سكن غضب موسى على قومه، وهدأ عليه الصلاة والسلام واستقرت نفسه أخذ الألواح التي كان قد ألقاها فإذا به يجد المكتوب فيها هدى من الضلالات وإنقاذًا، وفيها أيضًا بيان لما يرحم الله به العباد وينجيهم به إن هم فعلوه وامتثلوه، ولكن هذه الهداية وتلك الرحمة لم يكن لينتفع بها إلا الذين يخافون الله ويمتثلون أمره ويجتنبون نواهيه، الشأن في ذلك شأن القرآن؛ إذ الله قال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾.

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾.

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قصة عبادة بني إسرائيل للعجل من سورة طه

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا ﴿٨٩﴾ ﴾ [طه: ٨٣-٨٩].

معاني مفردات الآيات المباركات:

الكلمة	معناها
﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ ﴾	وما حملك على أن تأتي مستعجلًا سابقًا قومك.
﴿أُوْلَآءِ﴾	هؤلاء.
﴿عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾	من خلفي – يأتون بعدي.
﴿لِتَرۡضَىٰ﴾	لترضى عني – لأرضيك عني.
﴿فَتَنَّا﴾	ابتلينا – اختبرنا.
﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾	صرفهم عن عبادة الله إلى عبادة العجل أوقعهم في الضلال
﴿أَسِفًا﴾	حزينًا.
﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾	أفتأخر وعد الله الذي وعدكم إياه أفمر زمن طويل على نعم الله عليكم حتى نسيتموها.
﴿بِمَلۡكِنَا﴾	بقدرتنا – بطاقتنا – بأمرنا بهوانا.
﴿جَسَدًا﴾	مُجسدًا في صورة عجل.
﴿خُوَارٞ﴾	صوت البقر.
﴿أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾	لا يجيبهم.

المعنى الإجمالي للآيات المباركات:

قال جمهور العلماء ما حاصله أن الله عَزَّوَجَلَّ واعد موسى عليه السلام، أن يأتيه موسى مع قومه بعد أربعين ليلة كما قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: ١٤٢].

فتقدم موسى عليه السلام وسبق قومه إلى الطور كي يكلمه ربه عَزَّوَجَلَّ ومن ثم يؤتيه ما يشاء من الألواح بما فيها من مواعظ وحكم، فلما تقدم موسى عليه السلام وسبق قومه إلى الموعد، سأله الله عَزَّوَجَلَّ-وربنا أعلم- فقال: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾ [طه: ٨٣، ٨٤].

أي: ما الذي جعلك تسبقهم ولا تأتي بهم فقال عليه السلام: ﴿هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ إنهم هؤلاء يسيرون خلفي، وأنا قد تقدمتهم يا رب لترضى عني فجئت قبلهم طلبًا لمرضاتك.

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول تعالى ذكره: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ﴾ وأي شيء أعجلك ﴿عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ فتقدمتهم وخلفتهم وراءك، ولم تكن معهم.

﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي﴾ يقول: قومي على أثري يلحقون بي ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ يقول: وعجلت أنا فسبقتهم ربّ كيما ترضى عني.

وإنما قال الله تعالى ذكره لموسى: ما أعجلك عن قومك؛ لأنه جلّ ثناؤه - فيما بلغنا- حين نجاه وبني إسرائيل من فرعون وقومه، وقطع بهم البحر، وعدهم جانب الطور الأيمن، فتعجل موسى إلى ربه، وأقام هارون في بني إسرائيل يسير بهم على أثر موسى.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

لما سار موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ببني إسرائيل بعد هلاك فرعون: ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩] وواعده ربه ثلاثين ليلة ثم أتبعها له عشرًا، فتمت له أربعين ليلة، أي: يصومها ليلًا ونهارًا. وقد تقدم في حديث «الفتون» بيان ذلك. فسارع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مبادرًا إلى الطور، واستخلف على بني إسرائيل أخاه هارون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ أي: قادمون ينزلون قريبًا من الطور، ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أي: لتزداد عني رضًا.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ أي: ما حملك على أن تسبقهم. قيل: عنى بالقوم جميع بني إسرائيل؛ فعلى هذا قيل: استخلف هارون على بني إسرائيل، وخرج معه بسبعين رجلًا للميقات فقوله: ﴿هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ ليس يريد أنهم يسيرون خلفه متوجهين إليه، بل أراد أنهم بالقرب مني ينتظرون عودي إليهم. وقيل: لا بل كان أمر هارون بأن يتبع في بني إسرائيل أثره ويلتحقوا به. وقال قوم: أراد بالقوم السبعين الذين اختارهم، وكان موسى لما قرب من الطور سبقهم شوقًا إلى سماع كلام الله.

وأورد أقوالًا أُخر ثم قال:

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ أعجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمسير إليه لترضى عني.

قلت: فحينئذٍ أخبر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه قد ابتلى قومه واختبرهم، وقام رجل منهم يُقال له السامري بإضلالهم وفتنتهم عن عبادة خالقهم إلى عبادة عجلٍ صنعه لهم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ أي: فإنا قد ابتلينا قومك من بني إسرائيل من بعد خروجك عنهم ومجيئك إلينا ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ أي: وأوقعهم السامري في الضلال والكفر وصرفهم عن عبادة الله عَزَّوَجَلَّ إلى عبادة العجل، أما السامر هذا فمن هو؟

هل رجل كان في زمان نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ضل ضلالًا بعيدًا وأضل غيره من بني إسرائيل بما استحدثه لهم لإضلالهم وإغوائهم وصرفهم عن عبادة الله عَزَّوَجَلَّ إلى عبادة عجل قد صنعه لهم وعلى ما سيأتي بيانه إن شاء الله.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان السامري من قوم يعبدون البقر، فوقع بأرض مصر فدخل في دين بني إسرائيل بظاهره، وفي قلبه ما فيه من عبادة البقر. وقيل: كان رجلًا من القبط، وكان جارًا لموسى آمن به وخرج معه. وقيل: كان عظيمًا من عظماء بني إسرائيل، من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام. قال سعيد بن جبير: كان من أهل كرمان. قلت: فالله أعلم.

أعود قائلًا: فماذا كان من موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لما أخبره الله عَزَّوَجَلَّ أن قومه قد عبدوا العجل؟؟ عندئذٍ رجع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۖ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾.

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يعاتب قومه على عبادة العجل عتابًا شديدًا

أي: رجع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قومه من بني إسرائيل غضبان حزينًا قائلًا لهم: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ﴾ وذلك منه قوله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ وكذا وعده لهم بنصره وتأييده وسائر الوعود التي وعدهم الله بها ومنها ما تحقق أمام أعينهم.

أما قوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أي: أتأخر عليكم إنجاز الله عَزَّوَجَلَّ للوعد الذي وعدكم إياه، كلا بل إن الله عَزَّوَجَلَّ أكرمكم وأغرق عدوكم، وأنجز لكم ما وعدكم ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ المعنى: أم أردتم أن تفعلوا فعلًا إجراميًّا بسببه يحيل عليكم غضب من الله عَزَّوَجَلَّ وينزل بكم عذاب بسببه؟!

وبنحو هذا قال أهل العلم.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يقول الله تعالى ذكره لموسى: فإنا يا موسى قد ابتلينا قومك من بعدك بعبادة العجل، وذلك كان فتنتهم من بعد موسى.

ويعني بقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِكَ﴾ من بعد فراقك إياهم يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.

وكان إضلال السامريّ إياهم دعاءه إياهم إلى عبادة العجل.

وقوله: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ يقول: فانصرف موسى إلى قومه من بني إسرائيل بعد انقضاء الأربعين ليلة ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ متغيظًا على قومه، حزينًا لما أحدثوه بعده من الكفر بالله.

وقوله: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ يقول: ألم يعدكم ربكم أنه غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى، ويعدكم جانب الطور الأيمن، وينزل عليكم المنّ والسلوى، فذلك وعد الله الحسن بني إسرائيل الذي قال لهم موسى: ألم يعدكموه ربكم، وقوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يقول: أفطال عليكم العهد بي، وبجميل نعم الله عندكم، وأياديه لديكم، أم أردتم أن يحلّ عليكم غضب من ربكم؟! يقول: أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فتستحقوه بعبادتكم العجل، وكفركم بالله، فأخلفتم موعدي؟! وكان إخلافهم موعده، عكوفهم على العجل، وتركهم

السير على أثر موسى للموعد الذي كان الله وعدهم، وقولهم لهارون إذ نهاهم عن عبادة العجل، ودعاهم إلى السير معه في أثر موسى ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾.

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحديث في بني إسرائيل، وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري. وفي الكتب الإسرائيلية: أنه كان اسمه هارون أيضًا، وكتب الله تعالى له في هذه المدة الألواح المتضمنة التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥] أي: عاقبة الخارجين عن طاعتي المخالفين لأمري.

وقوله: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ أي: بعد ما أخبره تعالى بذلك، في غاية الغضب والحَنَق عليهم، هو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم، وتَسَلّم التوراة التي فيها شريعتهم، وفيها شرف لهم. وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يَعْلَمُ كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه وسخافة عقولهم وأذهانهم؛ ولهذا رجع إليهم غضبان أسفًا، والأسف: شدة الغضب.

وقال مجاهد: ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ أي: جزعًا. وقال قتادة، والسدي: ﴿أَسِفًا﴾ أي: حزينًا على ما صنع قومه من بعده. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ أي: أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة، وحسن العاقبة كما قد شاهدتم من نصرته إياكم على عدوكم، وإظهاركم عليه، وغير ذلك من أياديه عندكم؟ ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي: في انتظار ما وعدكم الله. ونسيان ما سلف من نعمه، وما بالعهد من قدم. ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «أم» هاهنا بمعنى «بل» وهي للإضراب عن الكلام الأول، وعدول إلى الثاني، كأنه يقول: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب

من ربكم ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ حال وقد مضى في «الأعراف» بيانه مستوفى. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وعدهم عَزَّوَجَلَّ الجنة إذا أقاموا على طاعته، ووعدهم أنه يسمعهم كلامه، في التوراة على لسان موسى؛ ليعملوا بما فيها فيستحقوا ثواب عملهم. وقيل: وعدهم النصر والظفر. وقيل: وعده قوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ الآية. ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾ أي: أفنسيتم؛ كما قيل؛ والشيء قد ينسى لطول العهد. ﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ﴿يَحِلَّ﴾ أي: يجب وينزل. والغضب: العقوبة والنقمة. والمعنى: أم أردتم أن تفعلوا فعلًا يكون سبب حلول غضب الله بكم؛ لأن أحدًا لا يطلب غضب الله، بل قد يرتكب ما يكون سببًا للغضب. ﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾؛ لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ إلى أن يرجع إليهم من الطور. وقيل: وعدهم على أثره للميقات فتوقفوا.

فأجاب قوم موسى بما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ عنهم إذ قال: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه: ٨٧-٨٩].

المعنى - والله أعلم -: أن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما عاتب بني إسرائيل على ما صنعوه وعلى عبادتهم العجل ووبخهم ولامهم أجابوه بقولهم: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ ما تخلفنا عن متابعتك والسير من بعدك والثبات على أمرك باختيارنا وقدرتنا وطاقتنا، ولكنا غُلبنا على أمرنا فقد كانت معنا أمانات لآل فرعون من ذهب وحليٍّ ولم نرها حلالًا لنا فقذفناها أي: في حفرة وقيل: كان ذلك الإلقاء بأمرٍ من هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حتى تجمع الحليُّ في مكان واحدٍ

إلى أن يرجع موسى عليه السلام ويرى فيه أمره الذي يأمره الله به.

وقيل: إن الذي أمرهم بإلقائه السامري كي يصل إلى مراده من الاحتيال فالله أعلم. أما قولهم: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ أي: وبنحو الذي صنعنا صنع السامري، فكذلك ألقى السامري الحلي الذي معه أيضًا، فصنع لهم السامري من هذا الحلي بعد أن أوقد عليه النار فانصهر، صنع عجلًا من هذا الذهب ثم قبض قبضة من أثر فرس جبريل عليه السلام كذا ورد في الموقوفات فطرحها السامري على العجل فسمع له صوت البقر، وهو الخوار، فقال السامري لهم: هذا إلهكم وإله موسى فنسي موسى أن يخبركم أن هذا ربكم، ونسي أن يعهد إليكم بعبادته وقيل: فضَل موسى الطريق وجاء ربُّه من طريق آخر فها هو وقال بعض العلماء: إن السامري صنع من الذهب عجلًا بطريقة تحدث صوتًا إذا دخله الهواء ولم يكن عجلًا من لحم ودم وصوت فالله أعلم.

وقال بعضهم أيضًا إن قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ عائدٌ على السامري أي: فنسي العهود والمواثيق وترك ما أمره موسى به من الإيمان.

ثم وبخهم الله عزوجل بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ أي: لا يرد عليهم إذا كلموه ولا يجيبهم إذا دعوه ولا يملك لهم كشف ضرٍّ عنهم ولا جلب نفع لهم.

وبنحو هذا قال أهل العلم بالتأويل:

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: قال قوم موسى لموسى: ما أخلفنا موعدك، يعنون بموعده: عهده الذي كان عهده إليهم. وقوله: ﴿بِمَلْكِنَا﴾ يخبر جلّ ذكره عنهم أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ، وقالوا: إنا لم نطق حمل أنفسنا على الصواب، ولم نملك أمرنا حتى وقعنا في الذي وقعنا فيه من الفتنة.

وأورد الطبري أقوالًا في تفسيره قولهم: ﴿بِمَلْكِنَا﴾ منها بأمرنا، ومنها

بطاقتنا، ومنها بهوانا.

وقال أبو جعفر: وكلّ هذه الأقوال الثلاثة في ذلك متقاربات المعنى، لأن من لم يملك نفسه، لغلبة هواه على ما أمر، فإنه لا يمتنع في اللغة أن يقول: فعل فلان هذا الأمر، وهو لا يملك نفسه وفعله، وهو لا يضبطها وفعله وهو لا يطيق تركه.

ثم قال: وإنما قصدوا إلى أن معناه: ما أخلفنا موعدك بسلطان كانت لنا على أنفسنا نقدر أن نردها عما أتت؛ لأن هواها غلبنا على إخلافك الموعد.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ يقول: ولكنا حملنا أثقالًا وأحمالًا من زينة القوم، يعنون من حلي آل فرعون، وذلك أن بني إسرائيل لما أراد موسى أن يسير بهم ليلًا من مصر بأمر الله إياه بذلك، أمرهم أن يستعيروا من أمتعة آل فرعون وحليهم، وقال: إن الله مغنمكم ذلك، ففعلوا، واستعاروا من حليّ نسائهم وأمتعتهم، فذلك قولهم لموسى حين قال لهم: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾.

وأورد بإسنادٍ صحيح عن ابن زيد، في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ قال: الحليّ الذي استعاروه والثياب ليست من الذنوب في شيء، لو كانت الذنوب كانت حملناها نحملها، فليست من الذنوب في شيء.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقوله: ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ يقول: فألقينا تلك الأوزار من زينة القوم في الحفرة ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ يقول: فكما قذفنا نحن تلك الأثقال، فكذلك ألقى السامري ما كان معه من تربة حافر فرس جبريل.

وأورد قولًا آخر في قوله: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾ أي: فكذلك صنع السامري.

وقال: وقوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ يقول: فأخرج لهم

السامريّ مما قذفوه ومما ألقاه عجلًا جسدًا له خوار، ويعني بالخوار: الصوت، وهو صوت البقر.

ثم اختلف أهل العلم في كيفية إخراج السامريّ العجل، فقال بعضهم: صاغه صياغة، ثم ألقى من تراب حافر فرس جبرائيل في فمه فخار.

وأورد بما يصح عن قتادة: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾﴾ قال: كان الله وقّت لموسى ثلاثين ليلة ثم أتمها بعشر، فلما مضت الثلاثون قال عدوّ الله السامري: إنما أصابكم الذي أصابكم عقوبة بالحلي الذي كان معكم، فهلموا وكانت حليًّا تعيروها من آل فرعون، فساروا وهي معهم، فقذفوها إليه، فصوّرها صورة بقرة، وكان قد صرّ في عمامته أو في ثوبه قبضة من أثر فرس جبرائيل، فقذفها مع الحليّ والصورة ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ فجعل يخور خوار البقر، فقال: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾.

وأورد بإسناد حسن عن السديّ، قال: أخذ السامريّ من تربة الحافر، حافر فرس جبرائيل، فانطلق موسى واستخلف هارون على بني إسرائيل وواعدهم ثلاثين ليلة، فأتمها الله بعشر، قال لهم هارون: يا بني إسرائيل إن الغنيمة لا تحلّ لكم، وإن حليّ القبط إنما هو غنيمة، فاجمعوها جميعًا، فاحفروا لها حفرة فادفنوها، فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها، وإلا كان شيئًا لم تأكلوه، فجمعوا ذلك الحليّ في تلك الحفرة، فجاء السامريّ بتلك القبضة فقذفها فأخرج الله من الحليّ عجلًا جسدًا له خوار، وعدّت بنو إسرائيل موعد موسى، فعدوا الليلة يومًا، واليوم يومًا، فلما كان لعشرين خرج لهم العجل، فلما رأوه قال لهم السامريّ: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ فعكفوا عليه يعبدونه وكان يخور ويمشي ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ ذلك حين قال لهم هارون: احفروا لهذا الحليّ حفرة واطرحوه فيها، فطرحوه، فقذف السامريّ تربته، وقوله: ﴿فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ يقول: فقال قوم موسى الذين عبدوا العجل: هذا معبودكم

ومعبود موسى، وقوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ يقول: فضلّ وترك.

قال الطبري:

ثم اختلف أهل التأويل في قوله: ﴿فَنَسِيَ﴾ من قائله ومن الذي وصف به وما معناه، فقال بعضهم: هذا من الله خبر عن السامريّ، والسامريّ هو الموصوف به، وقالوا: معناه: أنه ترك الدين الذي بعث الله به موسى وهو الإسلام.

وقال آخرون: بل هذا خبر من الله عن السامريّ، أنه قال لبني إسرائيل، وأنه وصف موسى بأنه ذهب يطلب ربه، فأضلّ موضعه، وهو هذا العجل.

قال أبو جعفر: والذي هو أولى بتأويل ذلك القول الذي ذكرناه عن هؤلاء، وهو أن ذلك خبر من الله عزّ ذكره عن السامريّ أنه وصف موسى بأنه نسي ربه، وأن ربه الذي ذهب يريده هو العجل الذي أخرجه السامري، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، وأنه عقيب ذكر موسى، وهو أن يكون خبرًا من السامري عنه بذلك أشبه من غيره.

يقول تعالى ذكره موبخًا عبدة العجل، والقائلين له: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ وعابهم بذلك، وسفه أحلامهم بما فعلوا ونالوا منه: أفلا يرون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم وإله موسى لا يكلمهم، وإن كلَّموه لم يرد عليهم جوابًا، ولا يقدر على ضرّ ولا نفع، فكيف يكون ما كانت هذه صفته إلهًا؟

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

﴿قَالُوا﴾ أي: بنو إسرائيل في جواب ما أنبهم موسى وقرعهم: ﴿مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ أي: عن قدرتنا واختيارنا.

ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد، يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حُلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم، حين خرجوا من مصر، ﴿فَقَذَفْنَٰهَا﴾ أي: ألقيناها عنا. وقد تقدم في حديث «الفتون» أن هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الذي كان أمرهم بإلقاء الحلي في حفرة فيها نار.

ثم قال ابن كثير بعد إيراده أقوالًا:

يقول الله: ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أي: ترك ما كان عليه من الإسلام يعني: السامري.

قال الله تعالى ردًّا عليهم، وتقريعًا لهم، وبيانًا لفضيحتهم وسخافة عقولهم فيما ذهبوا إليه: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ أي: العجل ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ أنه لا يجيبهم إذا سألوه، ولا إذا خاطبوه، ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ أي: في دنياهم ولا في أخراهم.

ثم قال: وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط، فألقوها عنهم، وعبدوا العجل. فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عمر: أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب الثوب -يعني: هل يصلي فيه أم لا؟ - فقال ابن عمر رضي الله عنهما: انظروا إلى أهل العراق، قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ -يعني: الحسين -وهم يسألون عن دم البعوض.

موقف نبي الله هارون عليه السلام من هذه الفتنة

(فتنة عبادة العجل) ونهيه بني إسرائيل عن ذلك

قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ ﴾ [طه: ٩٠-٩٤].

معاني مفردات الآيات المباركات:

الكلمة	معناها
﴿فُتِنتُم بِهِۦ ۖ﴾	اختبرتم به – ابتليتم به.
﴿لَن نَّبْرَحَ﴾	لن نزال- سنستمر.
﴿عَٰكِفِينَ﴾	مقيمين (على عبادته).
﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ﴾	ألا تسير خلفي وتأتي من ورائي وتتبعني بعد سفري- أن تتبع وصيتي لك.
﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى﴾	لا تجذبني من لحيتي.
﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾	ولم تمتثل قولي- ولم تلحظ قولي.

المعنى الإجمالي للآيات المباركات:

هذا، والله أعلم دفاعٌ عن نبي الله هارون عليه السلام وبيان لبراءة ساحته مما صنعه الإسرائيليون من عبادة العجل وبيان لعدم تقصيره في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، فإنه عليه السلام لما رأى السامري صنع ما صنع واتبعه على باطله أقوام من بني إسرائيل قام هارون عليه السلام بتحذيرهم إذ قال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ﴾

اختبرتم به وابتليتم به، أتعبدوه أم تعبدوا الله عَزَّوَجَلَّ فإن ربكم الرحمن فاتبعوني فيما أدعوكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له وسائر ما صبئتكم به من وجوه الخير، وسيروا معي حتى نذهب لموسى عليه السلام وأطيعوا أوامري-قالوا حينئذٍ: لن نزال مستمرين على عبادته حتى يرجع إلينا موسى فيبين لنا هل أصبنا أم أخطأنا.

قال الطبري رحمه الله:

وقوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ يقول: لقد قال - لعبدة العجل من بني إسرائيل – هارون- من قبل رجوع موسى إليهم، وقيله لهم ما قال مما أخبر الله عنه-: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ يقول: إنما اختبر الله إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل الذي أحدث فيه الخوار، ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض القلب، الشاكّ في دينه.

وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ يقول: وإن ربكم الرحمن الذي يعم جميع الخلق نعمه، فاتَّبعوني على ما آمركم به من عبادة الله، وترك عبادة العجل، وأطيعوا أمري فيما آمركم به من طاعة الله، وإخلاص العبادة له، وقوله: ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ﴾ يقول: قال عبدة العجل من قوم موسى: لن نزال على العجل مقيمين نعبده، حتى يرجع إلينا موسى.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يخبر تعالى عما كان من نَهْي هارون عليه السلام لهم عن عبادة العجل، وإخباره إياهم: إنما هذا فتنة لكم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا، ذو العرش المجيد، الفعال لما يريد ﴿فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ أي: فيما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه. ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ أي: لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه. وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه وكادوا أن يقتلوه.

وقال القرطبي رحمه الله:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ ﴾ أي: من قبل أن يأتي موسى ويرجع إليهم ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ﴾ أي: ابتليتم وأضللتم به؛ أي: بالعجل. ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ لا العجل ﴿فَٱتَّبِعُونِى ﴾ في عبادته ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴾ لا أمر السامري. أو فاتبعوني في مسيري إلى موسى ودعوا العجل. فعصوه و﴿ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ ﴾ أي: لن نزال مقيمين على عبادة العجل. ﴿ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾ فينظر هل يعبده كما عبدناه؛ فتوهموا أن موسى يعبد العجل.

نبي الله موسى عليه السلام يعاتب أخاه هارون عليه السلام

وهارون عليه السلام يبين عذره لأخيه

لقد توجه موسى عليه السلام بالعتاب لأخيه هارون عليه السلام، فقد خرج موسى وتركه مع بني إسرائيل وأوصاه قائلًا: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] فرجع موسى فوجد القوم يعبدون العجل فعاتبهم كما سبق، واتجه بالعتاب إلى أخيه هارون.

قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴾.

هذا -والله أعلم- مفاده أن موسى عليه السلام كان قد أوصى أخاه هارون عليه السلام بأن يخلفه في قوم ويُصلح، فلما كان من أمر القوم ما كان من عبادة العجل، ورجع موسى عليه السلام إليهم اتجه إلى معاتبته أخيه هارون عليه السلام واشتد عليه في العتاب، وما قصر هارون عليه السلام ولا تهاون ولكن موسى عليه السلام لم يكن على علم بالذي كان من أمر هارون عليه السلام مع القوم، فرجع موسى عليه السلام وعاتب هارون عتابًا شديدًا، ولم يقتصر في عتابه لأخيه عليه السلام على الكلام بل أخذ بلحيته وبرأسه

يجره إليه، واشتد ذلك على هارون عليه السلام، وقد ذكر هارون عليه السلام أعذاره فيما حدث إذ قال: ﴿ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

فالحاصل أن موسى عليه السلام وقد أخذ برأس أخيه يجره إليه ويقول له: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ ما منعك أن تأتيني أنت والقوم، وقد قلت لربي عز وجل هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى، فما الذي خلفك يا هارون وأخرك عن اللحاق بي بمن آمن معك لماذا لم تأت أنت ومن آمن ولم يعبد العجل؟!! فاعتذر هارون عليه السلام بقوله: إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم تعمل بقولي ولم تمتثل له، فخشيت إن خرجت بقومٍ وتركت قومًا يعبدون العجل أن تلومني وتؤنبني فلا تجرني من لحيتي ولا من رأسي فالقوم سيشمتون بي فعندها دعا موسى عليه السلام ربَّه عز وجل أن يغفر له ولأخيه فقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾.

وبنحو هذا قال أهل العلم:

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: قال موسى لأخيه هارون لما فرغ من خطاب قومه ومراجعته إياهم على ما كان من خطأ فعلهم: يا هارون أي شيء منعك إذ رأيتهم ضلوا عن دينهم، فكفروا بالله وعبدوا العجل ألا تتبعني؟!

واختلف أهل التأويل في المعنى الذي عذل موسى عليه أخاه من تركه اتباعه، فقال بعضهم: عذله على تركه السير بمن أطاعه في أثره على ما كان عهد إليه.

وقال آخرون: بل عذله على تركه أن يصلح ما كان من فساد القوم.

وقوله: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ﴾ وفي هذا الكلام متروك، ترك

ذكره استغناء بدلالة الكلام عليه، وهو: ثم أخذ موسى بلحية أخيه هارون ورأسه يجرّه إليه، فقال هارون: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾.

وقولـــه: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾﴾ فاختلف أهل العلم في صفة التفريق بينهم، الذي خشيه هارون، فقال بعضهم: كان هارون خاف أن يسير بمن أطاعه، وأقام على دينه في أثر موسى، ويخلف عبدة العجل، وقد ﴿قَالُواْ﴾ له ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فيقول له موسى: ﴿فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ بسيرك بطائفة، وتركك منهم طائفة وراءك.

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قول الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ قال: ﴿خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ قال: خشيت أن يتبعني بعضهم ويتخلف بعضهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: خشيت أن نقتتل فيقتل بعضنا بعضًا.

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب، القول الذي قاله ابن عباس من أن موسى عذل أخاه هارون على تركه اتباع أمره بمن اتبعه من أهل الإيمان، فقال له هارون: إني خشيت أن تقول، فرّقت بين جماعتهم، فتركت بعضهم وراءك، وجئت ببعضهم، وذلك بين في قول هارون للقوم: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي﴾ وفي جـــواب القـــوم لـــه وقيلهم: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾

وقوله: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ يقول: ولم تنظر قولي وتحفظه. من مراقبة الرجل الشيء، وهي مناظرته بحفظه.

التحذير من الغضب الشديد

هذا، ويستفاد من قصة موسى مع هارون في هذا الصدد أن الشخص عليه أن يحذر من الغضب قدر استطاعته فالغضب قد يحمل على أمور لا يفعلها الرجل الصالح في وقت هدوئه وراحته.

ووجه ذلك أن موسى عليه السلام لما اشتد غضبه إذ رأى قومه يعبدون العجل ألقى الألواح التي فيها هدى ورحمة فتكسرت تلك الألواح، وأخذ برأس أخيه النبي الكريم هارون عليه السلام وكذا أخذه من لحيته يجره إليه، كل ذلك بسبب الغضب ولكن غفر ذلك لموسى عليه السلام فإنه كان غضبًا لله عز وجل وكان غيرةً من موسى عليه السلام على دينه.

وقال ابن كثير رحمه الله:

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع إلى قومه، فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم، فامتلأ عند ذلك غيظًا، وألقى ما كان في يده من الألواح الإلهية، وأخذ برأس أخيه يجره إليه، وقد قدمنا في سورة «الأعراف» بسط ذلك، وذكرنا هناك حديث «**ليس الخبر كالمعاينة**».

وشرع يلوم أخاه هارون فقال: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: فتخبرني بهذا الأمر أول ما وقع ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ أي: فيما كنت تقدمت إليك، وهو قوله: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. قال: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ ترقق له بذكر الأم مع أنه شقيقه لأبويه؛ لأن ذكر الأم هاهنا أرق وأبلغ، أي: في الحنو والعطف؛ ولهذا قال: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۝٩٤﴾ الآية.

هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه، حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم قال: ﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾ أن أتبعك فأخبرك بهذا، فتقول لي: لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾

أي: وما راعيت ما أمرتك به حيث استخلفتك فيهم. قال ابن عباس: وكان هارون هائبًا مطيعًا له.

وقال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ:

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ قال ابن عباس: أخذ شعره بيمينه ولحيته بيساره؛ لأن الغيرة في الله ملكته؛ أي: لا تفعل هذا فيتوهموا أنه منك استخفاف أو عقوبة. وقد قيل: إن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إنما فعل هذا على غير استخفاف ولا عقوبة كما يأخذ الإنسان بلحية نفسه. وقد مضى هذا في «الأعراف» مستوفى. والله عَزَّوَجَلَّ أعلم بما أراد نبيه عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي: خشيت أن أخرج وأتركهم وقد أمرتني أن أخرج معهم فلو خرجت لاتبعني قوم ويتخلف مع العجل قوم؛ وربما أدى الأمر إلى سفك الدماء؛ وخشيت إن زجرتهم أن يقع قتال فتلوموني على ذلك. وهذا جواب هارون لموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عن قوله: ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ وفي الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] لأنك أمرتني أن أكون معهم. وقد تقدم. ومعنى: ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ لم تعمل بوصيتي في حفظه؛ قاله مقاتل. وقال أبو عبيدة: لم تنتظر عهدي وقدومي.

موسى عليه السلام يزجر السامري ويوقع عليه العقوبة الشديدة ويُحرِّق العجل

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه: ٩٥-٩٨].

معاني مفردات الآيات المباركات:

الكلمة	معناها
﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾	فما شأنك فما بالك ماذا صنعت؟
﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾	رأيت ما لم يروه- وعلمت ما لم يعلموه.
﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾	أخذت كفًّا من ترابٍ من المكان الذي سار عليه فرس جبريل عليه السلام.
﴿فَنَبَذْتُهَا﴾	فطرحتها (على العجل المصنوع من الحلي).
﴿سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾	فطرحتها (على العجل المصنوع من الحلي).
﴿لَا مِسَاسَ﴾	زينت لي نفسي – حسنت لي نفسي.
﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾	لن تمس أحدًا ولن يمسك أحدٌ وقيل لن يتعامل معك أحدٌ ولا تتعامل مع أحدٍ.
	مكثت حوله وأقمت عنده تعبده عاكفًا على عبادته مستمرًّا عليها.
﴿ٱلْيَمِّ﴾	البحر.
﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾	أحاط بكل شيء علمًا.

المعنى الإجمالي للآيات:

توجه موسى عليه السلام بالخطاب للسامري، وذلك بعد أن عاتب قومه من بني إسرائيل وعاتب أخاه هارون عليه السلام، وبيَّن له هارون العذر في ذلك، فحينئذٍ توجه موسى بالخطاب للسامري رأس الفتنة والضلال قائلًا:

﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾ فما شأنك وما أمرك ﴿يَٰسَٰمِرِيُّ﴾، ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ رأيت شيئًا لم يره القوم وعلمت علمًا لم يعلمه القوم، فرأيت جبريل على فرسه فأخذت كفًّا من التراب من أثر الفرس فطرحتها على العجل فكان من أمر العجل ما كان، من كونه سمع له خوار وأصبح جسدًا فيه روح، وهكذا حسنت لي نفسي وزينت لي نفسي وهيأت لي نفسي فأمرت القوم بعبادته؛ قال موسى حينئذٍ: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ لن يقربك أحدٌ ولن يقترب منك أحد، ولا تقرب أحدًا ولا تعامل لك مع أحدٍ وإن لك موعدًا لن تخلفه فإنه آتيك هذا الموعد الذي وعدناك به، وهو يوم القيامة أما عن إلهك الذي عبدته وأقمت حوله فانظر إليه.

موسى عليه السلام يحرق العجل

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ لنحرقه قطعة قطعة شيئًا فشيئًا ثم لنذرينه بعد حرقه في البحر تزريةً ولنطيرنه تطييرًا ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ﴾ معبودكم الذي يستحق العبادة الذي هو خالقكم ورازقكم ومحييكم ومميتكم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا معبود معه ولا معبود غيره ولا معبود سواه ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أحاط علمًا بكل شيء فما من شيء إلا وعلمه عند الله عزوجل يعلم عنه كل شيء.

وبنحو ما ذكر قال أهل العلم.

قال الطبري رحمه الله:

يقول تعالى ذكره: قال موسى للسامريّ: فاذهب فإن لك في أيام حياتك أن

تقول: لا مساس: أي لا أمس، ولا أُمسُّ.. وذُكر أن موسى أمر بني إسرائيل أن لا يؤاكلوه، ولا يخالطوه، ولا يبايعوه، فلذلك قال له: ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾، فبقي ذلك فيما ذكر في قبيلته.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ اختلفت القراء في قراءته، فقرأته عامة قرّاء أهل المدينة والكوفة ﴿لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ بضم التاء وفتح اللام بمعنى: وإن لك موعدًا لعذابك وعقوبتك على ما فعلت من إضلالك قومي حتى عبدوا العجل من دون الله، لن يخلفكه الله، ولكن يذيقكه، وقرأ ذلك الحسن وقَتادة وأبو نهيك (وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدا لَنْ تُخْلِفَهُ) بضمّ التاء وكسر اللام، بمعنى: وإن لك موعدًا لن تخلفه أنت يا سامريّ، وتأوّلوه بمعنى: لن تغيب عنه.

وقوله: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ يقول: وانظر إلى معبودك الذي ظلت عليه مقيمًا تعبده.

وقوله: ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ اختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامَّة قرّاء الحجاز والعراق ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بضم النون وتشديد الراء، بمعنى لنحرقنه بالنار قطعة قطعة، ورُوي عن الحسن البصري أنه كان يقرأ ذلك (لَنُحْرِقَنَّهُ) بضم النون، وتخفيف الراء، بمعنى: لنحرقنه بالنار إحراقة واحدة.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ يقول: ثم لنذرّينه في البحر تذرية، يقال منه: نسف فلان الطعام بالمنسف: إذا ذراه فطير عنه قشوره وترابه باليد أو الريح.

وقوله: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يقول: ما لكم أيها القوم معبود إلا الذي له عبادة جميع الخلق لا تصلح العبادة لغيره، ولا تنبغي أن تكون إلا له ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ يقول: أحاط بكل شيء علمًا فعلمه، فلا يخفى عليه منه شيء ولا يضيق عليه علم جميع ذلك، يقال منه: فلان يسع لهذا الأمر: إذا أطاقه وقوي عليه، ولا يسع له: إذا عجز عنه فلم يطقه ولم يقو عليه.

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ:

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾ قال موسى للسامري: فما شأنك يا سامري، وما الذي دعاك إلى ما فعلته؟!

وأورد بإسناد صحيح عن ابن زيد في قوله: ﴿ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾ قال: ما أمرك؟ ما شأنك؟ ما هذا الذي أدخلك فيما دخلت فيه؟!

وأورد بإسناد حسن عن السديّ: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾ قال: ما لك يا سامريّ؟

وقوله: ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ يقول: قال السامريّ: علمت ما لم يعلموه، وهو فعلت من البصيرة: أي صرت بما عملت بصيرًا عالمًا.

وقال آخرون: هي بمعنى: أبصرت ما لم يبصروه، وقالوا: يقال: بصرت بالشيء وأبصرته، كما يقال: أسرعت وسرعت ما شئت.

ذكر من قال: هو بمعنى أبصرت.

وأورد بإسنادٍ حسن عن قتادة: ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾ يعني فرس جبرائيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقوله: ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ يقول: قبضت قبضة من أثر فرس جبرائيل.

وأما قوله: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ فإن قراء الأمصار على قراءته بالضاد بمعنى فأخذت بكفي ترابًا من تراب أثر فرس الرسول.

وقوله: ﴿فَنَبَذْتُهَا ﴾ يقول: فألقيتها ﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ يقول: وكما فعلت من إلقائي القبضة التي قبضت من أثر الفرس على الحلية التي أوقد عليها حتى انسبكت فصارت عجلًا جسدًا له خوار، ﴿سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ يقول: زينت لي نفسي أنه يكون ذلك كذلك.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقوله: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ يقول لهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ليس هذا إلهكم، إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو أي: لا يستحق ذلك على العباد إلا هو، ولا تنبغي العبادة إلا له، فإن كل شيء فقير إليه، عبد لديه.

وقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ نصب على التمييز، أي: هو عالم بكل شيء، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، فلا ﴿يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ [سبأ: ٣]، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦] والآيات في هذا كثيرة جدًّا.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ﴾ أي: قال له موسى فاذهب أي من بيننا ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ﴾ أي: لا أمس ولا أُمس طول الحياة. فنفاه موسى عن قومه وأمر بني إسرائيل ألا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلموه عقوبة له. قال الشاعر:

تميم كرهط السامري وقوله ... ألا لا يريد السامري مساسًا

قال الحسن: جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ولا يماسوه عقوبة له ولمن كان منه إلى يوم القيامة؛ وكأن الله عَزَّوَجَلَّ شدد عليه المحنة، بأن جعله لا يماس أحدًا ولا يمكن من أن يمسه أحد، وجعل ذلك عقوبة له في الدنيا. ويقال: ابتلى بالوسواس وأصل الوسواس من ذلك الوقت. وقال قتادة: بقاياهم إلى اليوم يقولون ذلك - لا مساس - وإن مس واحد من غيرهم أحدًا منهم حُمَّ كلاهما في الوقت. ويقال: إن موسى هَمَّ بقتل السامري، فقال الله تعالى له: لا

تقتله فإنه سخي. ويقال لما قال له موسى: ﴿فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ خاف فهرب فجعل يهيم في البرية مع السباع والوحش، لا يجد أحدًا من الناس يمسه حتى صار كالقائل لا مساس؛ لبعده عن الناس وبعد الناس عنه؛ كما قال الشاعر:

حَمَّالُ رَايَاتٍ بِهَا قَنَاعِسًا   حَتَّى تَقُولَ الْأُزْدُ لا مَسَايِسًا

مسألة: هذه الآية أصل في نفي أهل البدع والمعاصي وهجرانهم وألا يخالطوا، وقد فعل النبي ﷺ ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذين خلفوا.

وهذا ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى في كتابه «قصص الأنبياء» بشأن السامري وعبادة العجل.

يذكر تَعَالَى ماكان مِنْ أَمْرِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، حِينَ ذَهَبَ مُوسَى عليه السلام إِلَى مِيقَاتِ رَبِّهِ فَمَكَثَ عَلَى الطُّورِ يُنَاجِيهِ رَبُّهُ وَيَسْأَلُهُ مُوسَى عليه السلام عَنْ أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ وَهُوَ تَعَالَى يُجِيبُهُ عَنْهَا.

فَعمد رجل مِنْهُم يُقَال لَهُ: هارون السامري، فَأخذ مَا كَانُوا اسْتَعَارُوهُ مِنَ الْحُلِيِّ، فَصَاغَ مِنْهُ عِجْلًا وَأَلْقَى فِيهِ قَبْضَة من التُّرَاب، كَانَ أَخذهَا مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ، حِينَ رَآهُ يَوْمَ أَغْرَقَ اللهُ فِرْعَوْنَ عَلَى يَدَيْهِ. فَلَمَّا أَلْقَاهَا فِي فِيهِ خاركما يَخُورُ الْعِجْلُ الْحَقِيقِيُّ.

وَيُقَالُ: إِنَّهُ اسْتَحَالَ عِجْلًا جَسَدًا أَيْ لَحْمًا وَدَمًا حَيًّا يَخُورُ، قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ.

وَقِيلَ: بَلْ كَانَتِ الرِّيحُ إِذَا دَخَلَتْ مِنْ دُبُرِهِ خَرَجَتْ مِنْ فَمِهِ فَيَخُورُ كَمَا تَخُورُ الْبَقَرَةُ، فَيَرْقُصُونَ حَوْلَهُ وَيَفْرَحُونَ.

﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾ أَيْ فَنَسِيَ مُوسَى رَبَّهُ عِنْدَنَا، وَذَهَبَ يَتَطَلَّبُهُ وَهُوَ هَاهُنَا! تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرا، وتقدست أسماؤه وَصِفَاته، وتضاعفت آلاؤه وهباته.

قَالَ الله تَعَالَى مُبينًا بُطْلَانَ مَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ، وَمَا عَوَّلُوا عَلَيْهِ مِنْ إِلَهِيَّةِ هَذَا الَّذِي

قُصَارَاهُ أَنْ يَكُونَ حَيَوَانًا بهيمًا أَو شَيْطَانًا رجيمًا: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾.

فَذَكَرَ أَنَّ هَذَا الْحَيَوَانَ لَا يَتَكَلَّمُ وَلَا يَرُدُّ جَوَابًا، وَلَا يَمْلِكُ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا يَهْدِي إِلَى رُشْدٍ، اتَّخَذُوهُ وَهُمْ ظَالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ، عَالِمُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ بُطْلَانَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ نَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى عليه السلام إِلَيْهِمْ، وَرَأَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ، وَمَعَهُ الْأَلْوَاحُ الْمُتَضَمِّنَةُ التَّوْرَاةَ، أَلْقَاهَا، فَيُقَالُ: إِنَّهُ كَسَرَهَا.

وَهَكَذَا هُوَ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَإِنَّ اللهَ أَبْدَلَهُ غَيْرَهَا، وَلَيْسَ فِي اللَّفْظِ الْقُرْآنِيِّ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، إِلَّا أَنَّهُ أَلْقَاهَا حِينَ عَايَنَ مَا عَايَنَ.

وَعِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ: أَنَّهُمَا كَانَا لَوْحَيْنِ، وَظَاهِرُ الْقُرْآنِ أَنَّهَا أَلْوَاحٌ مُتَعَدِّدَةٌ.

وَلَمْ يَتَأَثَّرْ بِمُجَرَّدِ الْخَبَرِ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ، فَأَمَرَهُ بِمُعَايَنَةِ ذَلِكَ.

وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ**»[1] ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ فَعَنَّفَهُمْ وَوَبَّخَهُمْ وَهَجَّنَهُمْ[2] فِي صَنِيعِهِمْ هَذَا الْقَبِيحِ فَاعْتَذَرُوا إِلَيْهِ، بِمَا لَيْسَ بِصَحِيحٍ، قَالُوا: إِنَّا ﴿حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ تَحَرَّجُوا مِنْ تَمَلُّكِ حُلِيِّ آلِ فِرْعَوْنَ وَهُمْ أَهْلُ حَرْبٍ، وَقَدْ أَمَرَهُمُ اللهُ بِأَخْذِهِ وَأَبَاحَهُ لَهُمْ، وَلَمْ يَتَحَرَّجُوا بِجَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ وَعَقْلِهِمْ مِنْ عِبَادَةِ الْعِجْلِ الْجَسَدِ الَّذِي لَهُ خُوَارٌ،

---

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) عابهم بشدة واستنكر عليهم بشدة.

مَعَ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ الْفَرْدِ الصَّمَدِ الْقَهَّارِ! ثُمَّ أقبل على أَخِيه هارون عليه السلام قَائِلا لَهُ: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ﴾ أَيْ هَلَّا لَمَّا رَأَيْتَ مَا صَنَعُوا اتَّبَعْتَنِي فَأَعْلَمْتَنِي بِمَا فَعَلُوا.

فَقَالَ: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أَيْ تَرَكْتَهُمْ وَجِئْتَنِي وَأَنْتَ قَدِ اسْتَخْلَفْتَنِي فِيهِمْ.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾

وَقد كَانَ هارون عليه السلام نَهَاهُمْ عَنْ هَذَا الصَّنِيعِ الْفَظِيعِ أَشَدَّ النَّهْيِ، وَزَجَرَهُمْ عَنْهُ أَتَمَّ الزَّجْرِ.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ﴾ أَيْ إِنَّمَا قَدَّرَ اللهُ أَمْرَ هَذَا الْعِجْلِ وَجَعَلَهُ يَخُورُ فِتْنَةً وَاخْتِبَارًا لَكُمْ، ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أَي لَا هَذَا ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ أَيْ: فِيمَا أَقُولُ لَكُمْ ﴿وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ۝٩٠ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ يشهد الله لهارون عليه السلام ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨] أَنَّهُ نَهَاهُمْ وَزَجَرَهُمْ عَنْ ذَلِكَ فَلَمْ يُطِيعُوهُ وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ.

ثُمَّ أقبل مُوسَى عَلَى السَّامِرِيِّ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ أَيْ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ أَيْ رَأَيْتُ جِبْرَائِيلَ وَهُوَ رَاكِبٌ فَرَسًا ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ أَيْ مِنْ أَثَرِ فَرَسِ جِبْرِيلَ.

وَقَدْ ذَكَرَ بَعضهم أَنه رَآهُ، وَكلما وَطِئَتْ بِحَوَافِرِهَا عَلَى مَوْضِعٍ اخْضَرَّ وَأَعْشَبَ، فَأَخَذَ مِنْ أَثَرِ حَافِرِهَا، فَلَمَّا أَلْقَاهُ فِي هَذَا الْعِجْلِ الْمَصْنُوعِ مِنَ الذَّهَبِ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ.

وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ۝٩٦ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ﴾ وَهَذَا دُعَاءٌ عَلَيْهِ بِأَنْ لَا يَمَسَّ أَحَدًا، مُعَاقَبَةً لَهُ عَلَى مَسِّهِ مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَسُّهُ، هَذَا مُعَاقَبَةٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ تَوَعَّدَهُ فِي الْأُخْرَى فَقَالَ: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥۖ﴾ وَقُرِئَ: (لن تُخلِفه) ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ

﴿إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ قَالَ: فَعَمَدَ مُوسَى عليه السلام إِلَى هَذَا الْعِجْلِ، فَحَرَقَهُ قِيلَ: بِالنَّارِ، كَمَا قَالَهُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ.

وَقِيلَ: بِالْمَبَارِدِ، كَمَا قَالَهُ عَلِيٌّ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُمَا، وَهُوَ نَصُّ أَهْلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ ذَرَّاهُ فِي الْبَحْرِ، وَأَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَشَرِبُوا، فَمَنْ كَانَ مِنْ عَابِدِيهِ عَلَقَ عَلَى شِفَاهِهِمْ من ذَلِك الرماد مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَقِيلَ: بَلِ اصْفَرَّتْ أَلْوَانُهُمْ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى إِخْبَارًا عَنْ مُوسَى أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ وَهَكَذَا وَقَعَ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ مُسَجَّلَةٌ لِكُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ! ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ حِلْمِهِ وَرَحْمَتِهِ بِخَلْقِهِ، وَإِحْسَانِهِ عَلَى عَبِيدِهِ فِي قَبُولِهِ تَوْبَةَ مَنْ تَابَ إِلَيْهِ، بِتَوْبَتِهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٥٤].

لَكِنْ لَمْ يَقْبَلِ اللهُ تَوْبَةَ عَابِدِي الْعِجْلِ إِلَّا بِالْقَتْلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ أَصْبَحُوا يَوْمًا وَقَدْ أَخَذَ مَنْ لَمْ يَعْبُدِ الْعِجْلَ فِي أَيْدِيهِمُ السُّيُوفَ، وَأَلْقَى الله عَلَيْهِم ضَبَابًا حَتَّى لَا يَعْرِفَ الْقَرِيبُ قَرِيبَهُ وَلَا النَّسِيبُ نَسِيبَهُ، ثُمَّ مَالُوا عَلَى عَابِدِيهِ فَقَتَلُوهُمْ وَحَصَدُوهُمْ فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَتَلُوا فِي صَبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ سَبْعِينَ أَلْفًا! ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ اسْتَدَلَّ بَعْضهم بقوله: ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ عَلَى أَنَّهَا تَكَسَّرَتْ، وَفِي هَذَا الِاسْتِدْلَالِ نَظَرٌ، وَلَيْسَ فِي اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا تَكَسَّرَتْ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما في شأن السامري وعبادة البقر قال رضي الله عنه (في حديث الفتون):

فَلَمَّا أَنْ جَاوز مُوسَى الْبَحْر قَالُوا: إِنَّا نَخَافُ أَنْ لَا يَكُونَ فِرْعَوْنُ غَرِقَ وَلَا نُؤْمِنُ بِهَلَاكِهِ، فَدَعَا رَبَّهُ فَأَخْرَجَهُ لَهُ بِبَدَنِهِ حَتَّى اسْتَيْقَنُوا بِهَلَاكِهِ.

ثُمَّ مَرُّوا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩]، قَدْ رَأَيْتُمْ مِنَ الْعِبَرِ وَسَمِعْتُمْ مَا يَكْفِيكُمْ.

وَمضى فأنزلهم مُوسَى منزلًا وَقَالَ: أطِيعُوا هارون فَإِن الله قد اسْتَخْلَفَهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي.

وَأَجَّلَهُمْ ثَلَاثِينَ يَوْمًا أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ فِيهَا.

فَلَمَّا أَتَى ربه عز وجل وَأَرَادَ أَنْ يُكَلِّمَهُ فِي ثَلَاثِينَ يَوْمًا، وَقَدْ صامهن لَيلهن ونهارهن، كره أَنْ يُكَلِّمَ رَبَّهُ وَرِيحُ فِيهِ رِيحُ فَمِ الصَّائِمِ، فَتَنَاوَلَ مُوسَى شَيْئًا مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ فَمَضَغَهُ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ حِينَ أَتَاهُ: لِمَ أَفْطَرْتَ؟ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِالَّذِي كَانَ - قَالَ: يَا رَبِّ إِنِّي كَرِهْتُ أَنْ أُكَلِّمَكَ إِلَّا وَفَمِي طيب الرّيح.

قَالَ: أَو مَا عَلِمْتَ يَا مُوسَى أَنَّ رِيحَ فَمِ الصَّائِمِ أطيب عِنْدِي مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ! ارْجِعْ فَصُمْ عَشْرًا ثُمَّ ائْتِنِي، فَفَعَلَ مُوسَى مَا أَمَرَهُ بِهِ رَبُّهُ.

فَلَمَّا رَأَى قَوْمُ مُوسَى أَنَّهُ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِم فِي الأجل ساءهم ذَلِك، وَكَانَ هارون قد خطبهم فَقَالَ: إِنَّكُمْ خَرَجْتُمْ مِنْ مِصْرَ وَلِقَوْمِ فِرْعَوْنَ عِنْدَكُمْ عَوَارِيُّ وَوَدَائِعُ، وَلَكُمْ فِيهَا مِثْلُ ذَلِكَ، وَأَنَا أرى أَن تحتسبوا مالكم عِنْدَهُمْ، وَلَا أُحِلُّ لَكُمْ وَدِيعَةً اسْتَوْدَعْتُمُوهَا وَلَا عَارِيَّةً، وَلَسْنَا بِرَادِّينَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ وَلَا مُمْسَكِيهِ لِأَنْفُسِنَا.

فَحَفَرَ حَفِيرًا وَأَمَرَ كُلَّ قوم عِنْدهم من ذَلِك مَتَاعٍ أَوْ حِلْيَةٍ أَنْ يَقْذِفُوهُ فِي ذَلِكَ

الْحَفِيرِ، ثُمَّ أَوْقَدَ عَلَيْهِ النَّارَ فَأَحْرَقَهُ، فَقَالَ: لَا يَكُونُ لَنَا وَلَا لَهُمْ.

وَكَانَ السَّامِرِيُّ مِنْ قَوْمٍ يَعْبُدُونَ الْبَقَرَ، جِيرَانٍ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَاحْتَمَلَ مَعَ مُوسَى وَبَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ احْتَمَلُوا، فَقُضِيَ لَهُ أَنْ رَأَى أَثَرًا فَقَبَضَ مِنْهُ قَبْضَةً فَمَرَّ بهارون فَقَالَ لَهُ هارون: يَا سامري أَلا تلقي مَا فِي يَديك؟ وَهُوَ قَابِضٌ عَلَيْهِ لَا يَرَاهُ أَحَدٌ طَوَالَ ذَلِكَ، فَقَالَ: هَذِهِ قَبْضَةٌ مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ الَّذِي جَاوز بكم الْبَحْر، وَلَا ألقيها لشيء إِلَّا أَنْ تَدْعُوَ اللهَ إِذَا أَلْقَيْتُهَا أَنْ يكون مَا أُرِيد، فألقاها ودعا لَهُ هارون.

فَقَالَ: أُرِيدُ أَنْ تَكُونَ عِجْلًا، فَاجْتَمَعَ مَا كَانَ فِي الْحُفْرَةِ مِنْ مَتَاعٍ أَوْ حِلْيَةٍ أَوْ نُحَاسٍ أَوْ حَدِيدٍ، فَصَارَ عِجْلًا أَجْوَفَ، لَيْسَ فِيهِ روح وَله خُوَارٌ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا وَاللهِ مَا كَانَ فِيهِ صَوْتٌ قَطُّ، إِنَّمَا كَانَتِ الرِّيحُ تَدْخُلُ مِنْ دُبُرِهِ وَتَخْرُجُ مِنْ فِيهِ، فَكَانَ ذَلِكَ الصَّوْتُ مِنْ ذَلِكَ.

فَتَفَرَّقَ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِرَقًا، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: يَا سَامِرِيُّ مَا هَذَا وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ؟ قَالَ: هَذَا رَبُّكُمْ، وَلَكِنَّ مُوسَى أَضَلَّ الطَّرِيقَ! وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: لَا نُكَذِّبُ بِهَذَا حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى، فَإِنْ كَانَ رَبُّنَا لَمْ نَكُنْ ضيعناه وعكفنا عَلَيْهِ حِينَ رَأَيْنَاهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَبَّنَا فَإِنَّا نَتَّبِعُ قَوْلَ مُوسَى.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ وَلَيْسَ بِرَبِّنَا وَلَا نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نُصَدِّقُ وَأُشْرِبَ فِرْقَةٌ فِي قُلُوبِهِمُ الصِّدْقَ بِمَا قَالَ السامري فِي الْعجل وأعلنوا عدم التَّكْذِيب بِهِ.

فَقَالَ لَهُم هارون عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لَيْسَ هَذَا.

قَالُوا: فَمَا بَالُ مُوسَى وَعَدَنَا ثَلَاثِينَ يَوْمًا ثُمَّ أَخْلَفَنَا؟ هَذِهِ أَرْبَعُونَ يَوْمًا قد مَضَت.

وَقَالَ سُفَهَاؤُهُمْ: أَخْطَأَ رَبَّهُ فَهُوَ يَطْلُبُهُ وَيَبْتَغِيهِ. فَلَمَّا كَلَّمَ اللهُ مُوسَى وَقَالَ لَهُ مَا قَالَ، أَخْبَرَهُ بِمَا لَقِيَ قَوْمُهُ مِنْ بَعْدِهِ، ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ فَقَالَ

لَهُمْ مَا سَمِعْتُمْ مِمَّا فِي الْقُرْآنِ ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ مِنَ الْغَضَبِ.

ثُمَّ إِنَّهُ عَذَرَ أَخَاهُ بِعُذْرِهِ واستغفر لَهُ، وَانْصَرف إِلَى السَّامِرِيِّ فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صنعت؟ قَالَ: قبضت قَبْضَة من أثر الرَّسُول وفطنت لَهَا وعميت عَلَيْكُم فقذفتها ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ وَلَو كَانَ إِلَهًا لم يخلص إِلَى ذَلِكَ مِنْهُ.

فَاسْتَيْقَنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالْفِتْنَةِ، وَاغْتَبَطَ الَّذِينَ كَانَ رَأْيُهُمْ فِيهِ مِثْلَ رَأْيِ هارون.

٥٠٢
قصص الأنبياء

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥

الفصل الأول

وجوه التشابه بين سيرة نبينا محمد ﷺ وسيرة نبي الله موسى عليه السلام ١٣
فضل العلم ١٩
استحباب التذكير بنبي الله موسى عليه السلام وقصته وسيرته بل والأمر بذلك ٢٠
نَسَبُ موسى ﷺ ٢٢
موسى عليه السلام من أولي العزم من الرسل ٢٥
نبي الله موسى عليه السلام يرعى الغنم ٢٨
بين يدي ميلاد موسى ﷺ ٢٩
ذكر بعض السبل التي سلكها فرعون لإضلال العباد واستعبادهم ٣١
مزيدٌ من وصف الحال في مصر زمن ميلاد موسى عليه السلام ٣٢
فرعون وبطانته ٣٢
ميلاد موسى عليه السلام وما أوحاه الله إلى أم موسى ٣٥
آل فرعون يلتقطون موسى عليه السلام ٣٨
حفظ الله عز وجل لموسى عليه السلام ٣٩
حال أم موسى بعد إلقاء ولدها في اليم ٤١
وماذا عن أم موسى بعد أن أُلقي موسى عليه السلام في اليم والتقطه آل فرعون؟! .. ٤١

أخت موسى تتبع الأخبار..... ٤٣
رجوع موسى عليه السلام إلى أمه لإرضاعه..... ٤٤
قدرٌ من حديث الفتون يتعلق بما سبق ٤٦

الفصل الثاني

موسى عليه السلام عند بلوغ أشدهِ واستوائه..... ٥٥
قصة موسى عليه السلام مع الإسرائيلي والقبطي وقتله القبطي ٥٦
خروج موسى عليه السلام إلى مدين ٦٥
لقاء موسى عليه السلام بالعبد الصالح ٦٩
تكليم الله عز وجل لموسى عليه السلام ووحيه إليه ٧٥

الفصل الثالث

المفاجأة الكبرى والكرامة العظمى لنبي الله موسى عليه السلام ٧٧
كرامةٌ عظيمة أكرم بها موسى عليه السلام..... ٨٠
اختيار موسى عليه السلام كي يكون رسولاً ٨٥
مفاجآت وآيات ٩٠
أعظم الآيات التي أيَّد الله عز وجل بها نبيه موسى عليه السلام ٩٠
العصا تتحول إلى حية تسعى!! ٩٣
آية أُخرى عظيمة أيضًا (اليد التي تخرج بيضاء من غير سوء)..... ٩٤
تكليف موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون ٩٩

موسى عليه السلام يسأل ربه عزوجل بعض المسائل ١٠٠
موسى عليه السلام يسأل ربَّه عزوجل مسألة مباركة لأخيه هارون أن يكون رسولاً نبيًّا ١٠٣
فأجاب الله عزوجل موسى عليه السلام وأعطاه سؤله ١٠٥
فصل في استجابة الله عزوجل لموسى عليه السلام وتذكيره ببعض نعم الله عزوجل عليه وبعض الوصايا من الله لموسى وهارون عليهما السلام قبل لقائهما لفرعون وعند لقائه) ١٠٧
وقفات مع هذه الآيات السابقة وما فيها من الوصايا الجوامع ١١١
وصية عند لقاء فرعون، وصيته بالإكثار من ذكر الله عزوجل ١١٤
الرسالة التي كُلِّف موسى وهارون عليهما السلام بحملها إلى فرعون ١١٦
آيات من سورة الشعراء في بيان نداءِ الله عزوجل نبيه موسى عليه السلام ١١٩
آيات من سورة النمل في تكليم الله عزوجل نبيه موسى عليه السلام ١٢٥
تلخيص لما تضمنه نداء الله عزوجل لنبيه موسى عليه السلام بالواد المقدس المبارك ١٣٥
تلخيصٌ لمطالب موسى عليه السلام من ربّه عزوجل ١٣٦
وبيان بعض مسائله ومخاوفه في هذا الموقف والمشهد المبارك؟!! ١٣٦
تأملات ١٣٧

الفصل الرابع

وماذا كان عند لقاء موسى عليه السلام بفرعون ١٤١
ذلكم اللقاء الأول من نوعه!! ١٤٢

وماذا بعد هذا الغياب الطويل لموسى عليه السلام؟!!! ١٤٣
وماذا في هذا اللقاء المثير لموسى عليه السلام مع فرعون؟!!! ١٤٣
ماذا كان من فرعون وقومه ووزرائه وجنده؟!!!..... ١٤٥
وما موقف الوزراء وأصحاب رؤوس الأموال من موسى عليه السلام ١٤٧
فأسوق أولاً مستعينًا بالله ما ورد في هذا الصدد..... ١٤٨
من سورة الشعراء مع تفسير الآيات المباركات ١٤٨
مزيدٌ من الإيضاح وأقوال العلماء..... ١٥١
فرعون يُهدد ويلوِّح بالبطش..... ١٥٩
مشهد آخر من مشاهد اللقاء بين موسى عليه السلام وبين فرعون..... ١٦٣
وفيه تعريفٌ بالله عز وجل وآياته وقدرته، وكذا تذكيرٌ بالبعث والحساب..... ١٦٣
سياق آخر لهذا المشهد العظيم ١٧٢
(مشهد لقاء موسى عليه السلام مع فرعون) من سورة الأعراف ١٧٢
وماذا كان من أشراف القوم ووجهائهم؟!! ١٧٦
سياقٌ آخر للقصة وبيان للمشهد من سورة يونس عليه السلام ١٧٨
وهل آمنت بنوا إسرائيل بموسى عليه السلام؟..... ١٨٢
وصية موسى عليه السلام لقومه من بني إسرائيل ١٨٥
وصية الله عز وجل لموسى وهارون عليهما السلام وأمره بتبشير المؤمنين..... ١٨٨
دعاء موسى وهارون عليهما السلام على فرعون واستجابة الله عز وجل هذا الدعاء.... ١٩١
مزيدٌ من الأقوال في تفسير قول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس:٨٨]. ١٩٦
بيان مجمل لدعوة موسى عليه السلام لفرعون من سورة الدخان..... ١٩٧

مشهد من مشاهد اللقاء بين موسى عليه السلام ٢٠١
وبين فرعون من سورة غافر وفي ثناياها قصة مؤمن آل فرعون ٢٠١
قاعدة ٢٠٨
قصة مؤمن آل فرعون ٢١١
لفتةٌ إلى منقبةٍ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه ٢٢٢
مؤمن آل فرعون يواصل التذكير ٢٢٣
تحذير المجادلين في آيات الله بغير علمٍ ٢٢٤
فرعون يتمادي في الكبر والعنادِ والتحدي ٢٢٦
مؤمن آل فرعون يواصل النصح والتذكير ٢٢٧
ملخص ما ذكره الحافظ ابن كثير رحمه الله ٢٣٨
في كتابه قصص الأنبياء عن مؤمن آل فرعون ٢٣٨
مشهد من مشاهد اللقاء بين موسى عليه السلام وفرعون من سورة الإسراء ٢٤٥
مشهد من المشاهد للقاء بين موسى عليه السلام ٢٥٦
وفرعون في آيات من سورة النازعات ٢٥٦
قصة لقاء موسى عليه السلام بفرعون، إلى أن أهلك الله فرعون ٢٥٩
كما رواها ابن عباس رضي الله عنهما في حديث الفتون ٢٥٩

الفصل الخامس

في معركة حاسمة انتصر فيها الحق، والحق دومًا في انتصار إن شاء الله ٢٦٣
موعد اللقاء بين موسى عليه السلام والسحرة ٢٦٩

نصيحة موسى عليه السلام للسحرة ٢٧٤
انتصار الحق ٢٨٤
موقف فرعون من السحرة بعد انتهاء المعركة..... ٢٨٥
عرضٌ وبيانٌ للمعركة الحاسمة بسياق آخر من سورة الشعراء..... ٢٩٧
بيانٌ لهذا المشهد العظيم والمعركة الحاسمة من سورة الأعراف..... ٣٠٦
موسى عليه السلام يُوصي الإسرائيليين بالصبر..... ٣١٨
وسياق آخر للقصة بإجمال من سورة القصص ٣٢٠

الفصل السادس

في بيان الآيات المتتابعة الدالة على صدق نبي الله موسى عليه السلام وتتابع المواعظ وصور التذكير لآل فرعون وبيان عدم انتفاع فرعون بكل آيات التذكير والوعظ وتماديه في الغي ٣٢٧
إرساله الطوفان على آل فرعون، والمراد به ٣٣٤
إرسال الجراد على آل فرعون ٣٣٦
إرسال الضفادع على آل فرعون ٣٣٧
إرسال الدم على آل فرعون..... ٣٣٨
نهاية الظالمين ٣٤٥
قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ ٣٤٥
تتابع وعظ فرعون وتذكيره وبيان سخريته ٣٤٨
من نبي الله الكريم موسى عليه السلام في آيات (من سورة الزخرف)..... ٣٤٨

فرعون يخطب في قومه ٣٥٥
بيان خفة عقول قوم فرعون واستخفافه بهم ٣٥٨

الفصل السابع

نجاة نبي الله موسى عليه السلام مع بني إسرائيل وهلاك فرعون ٣٦٣
وجنوده ووراثة بني إسرائيل ديار فرعون وجنوده ٣٦٣
هلاك فرعون الطاغية بالغرق وهلاك جنوده معه ٣٦٤
هلاك فرعون الطاغية بالغرق وهلاك جنوده معه ٣٦٥
آيات من سورة الشعراء..... ٣٦٦
اشتداد الكرب ٣٧٤
ثبات نبي الله موسى عليه السلام ٣٧٥
انفلاق البحر!!!..... ٣٧٥
هلاك الطاغية وجنوده..... ٣٧٦
الآيات الواردة في هلاك فرعون ونجاة بني إسرائيل من سورة الدخان ٣٨٠
موسى عليه السلام يؤمر بأن يترك البحر ساكنًا ٣٨٣
وراثة بني إسرائيل ديار فرعون وجنوده ٣٨٤
هل أمة محمد أفضل أم بنو إسرائيل؟..... ٣٨٨
شيءٌ من قصة هلاك فرعون من سورة يونس عليه السلام..... ٣٨٨
فرعون يعلن إيمانه حيث لا ينفع الإيمان ٣٨٩
آيات من سورة طه..... ٣٩٦

آيات من سورة الصافات ٣٩٩
قول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان هلاك قوم فرعون ٤٠٢
دعاء موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ على فرعون وملئه ٤٠٤

الفصل الثامن

أحوال نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ٤١٣
مع بني إسرائيل بعد هلاك فرعون وجنوده ٤١٣
نعمة الله عَزَّوَجَلَّ على بني إسرائيل بإنجائهم وإغراق آل فرعون..... ٤١٤
نعمة الله عَزَّوَجَلَّ على بني إسرائيل بإنجائهم وإغراق آل فرعون..... ٤١٥
وقصة مرورهم على القوم الذين يعكفون على أصنام لهم ٤١٥
مرور نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع بني إسرائيل على عبَّاد الأصنام ٤١٧
وموقف غير طيب ولا رشيد من بني إسرائيل مع نبيهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ..... ٤١٧
شيءٌ من نعم الله عَزَّوَجَلَّ على بني إسرائيل ٤٣٠
ذهاب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لتكليم ربه عَزَّوَجَلَّ وما كان منه في ذلك..... ٤٣٥
موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يطلب رؤية الله عَزَّوَجَلَّ وعدم تحقق ذلك ٤٣٩
دفع شبهة ٤٤٠
عبادة بني إسرائيل للعجل ٤٥٣
قصة السامري ٤٥٣
توبة بني إسرائيل من عبادة العجل وندمهم ٤٦١
غضب موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ من قومه لما عبدوا العجل وعقابه الشديد لهم ٤٦٣

إلقاء موسى عليه السلام الألواح ٤٦٥
موسى عليه السلام يأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه ٤٦٥
هارون عليه السلام ليس له ذنب وقد أدى ما عليه ٤٦٧
دعاء موسى عليه السلام لنفسه ولأخيه بالمغفرة..... ٤٦٧
قصة عبادة بني إسرائيل للعجل من سورة طه ٤٧١
موسى عليه السلام يعاتب قومه على عبادة العجل عتابًا شديدًا ٤٧٤
موقف نبي الله هارون عليه السلام من هذه الفتنة ٤٨٣
(فتنة عبادة العجل) ونهيه بني إسرائيل عن ذلك..... ٤٨٣
نبي الله موسى عليه السلام يعاتب أخاه هارون عليه السلام..... ٤٨٥
وهارون عليه السلام يبين عذره لأخيه..... ٤٨٥
التخدير من الغضب الشديد..... ٤٨٨
موسى عليه السلام يزجر السامري ويوقع عليه العقوبة الشديدة ويُحرِّق العجل . ٤٩٠
موسى عليه السلام يحرق العجل ٤٩١
فهرس الموضوعات ٥٠٣